في المعركة

إسرائيل كما رأيتها

بقلم الكاتبة الفرنسية : مارتين مونو

ترجمة : حليم طوسون

مراجعة : محمد عباس سيد أحمد

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٢

١ - دولة صغيرة..
ومشكلة ضخمة

***

عندما بدأت الكتابة عن اسرائيل ، وأقدمت على هذه المحاولة غير الكاملة حتما ، تذكرت كثيرا من النظرات والوجوه ٠٠ وجوه عرب ووجوه يهود ٠ لا شك أن تلك الأرض يتركز فيهـا ، دون سائر أركان المعمورة ، أكبر قدر من المآسى الفردية على رقعـــة محدودة للغاية ٠ فلكل أنواع الاضطهاد صداها هنا : الاستعمار والاقطاع اللذين تردى فيهما العالم العربى لســـنوات طويلة ، والفاشية الهتلرية التى اجتاحت أوروبا ، والعنصرية فى أشكالها المتباينة ، وأخطبوط البنتاجون ٠٠ كل ذلك يتشابك ويتداخل فى هذ الأرض الواقعة على مفترق الطرق بين الشعوب والحضارات ٠

وزيارة اسرائيل طوال شهر ، يزيد عن اللازم كما يقل عنه فى آن واحد ٠ فهى تزيد عن اللازم لأننا بصدد بلد صغير ٠ وهى أقصر من اللازم لأننا حيال مشكلة ضخمة ٠ فقد شـــهدت ٠ اسرائيل ثلاث حروب فى مدى عشرين عاما (١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) ٠ كما نشأت حالة مسمومة فى الشرق الأوسط ، ومأساة هـائلة يعيشها اللاجئون ، واحتـــلال عســـكرى لجزء من الأراضى المصرية والسورية والأردنية ٠٠ ولكن هناك أيضا أعمال الاضطهاد الموجهة ضد اليهود والمذابح النازية التى لا تزال ماثلة فى الأذهان ٠ فمجرد الكلام عن اسرائيل يثير خليطا من المشاعر ، وردود الأفعـال العاطفية القادرة على بلبلة العقليات الصافية ظاهريا حتىأنها تميل نحو ما يخالف التفكير السليم وبالتالى نحو الظلم ٠

يرفرف اليوم العلم ذو اللونين الأزرق والأبيض والمدموغ بنجمة داود على أرض تبلغ مساحتها ضعف الرقعة التى منحتهـا

الأمم المتحدة للدولة اليهودية فى عام ١٩٤٧ . ولا يمكن تقدير الوزن الصحيح لهذه الحقيقة الواقعة الا بملاحظة عن كثب . لقد تمكنت من التجول فى أنحاء اسرائيل ، وداخل الأراضى المحتلة ، ولم تغلق فى وجهى الا المناطق التى لا يمكن ارتيادها الا بمصاحبة حرس عسكرى ، أى مرتفعات جولان على الحدود السورية ، وممر الأردن وسيناء ، فيما بعد العريش ، فى اتجاه قناة السويس . وقد صاحبنى فى جولاتى مرشدون يهود وعرب ، وسأروى ببساطة ما رأيت وسمعت .

على بعد عشرين كيلو مترا من تل أبيب يوجد مدخل اسرائيل الجوى المتمثل فى مطار اللد ذى النشاط الدولى ـ تماما كما تشكل حيفا مدخلها البحرى .

وتبدو المدن من الطائرة ليلا كاشارات صادرة من الأرض ، ننظر اليها دائما بنفس الاحساس بالدهشة . فكل شىء يتغير تماما بعد ساعات قليلة من الطيران . لقد كنت فى أوروبا وفى الشتاء ، فاذا بى الآن فى الشرق بعذوبة أمسياته . لست فى آسيا تماما كما أنى لست فى أفريقيا ولكن فى البحر الأبيض المتوسط بسواده الداكن الغريب رغم النجوم اللامعة . وتل أبيب تعنى بالعبرية تل الربيع . ويقال انها كانت كثبان رمال يجرى وسطها نهر « العوجة » الصغير ، ولكنها الآن مدينة حديثة تعتبر أكبر مدن اسرائيل ، ويسكنها ٤٠٠ ألف نسمة .

كان يتعين علينا تأخير التوقيت ساعة بمجرد هبوطنا . وفى قاعة المطار الفسيحة كانت العائلات تتلاقى . فالبعض يستقبل أبناء خال قادمين من بروكسل أو من فيينا . ويتحدث القادمون مع مستقبليهم ويتبادلون الأخبار بأكثر من لغة منها العبرية واليديش والألمانية والفرنسية . على أن كلمة « سالوم » كانت تتردد باستمرار

وسط جلبة الترحيب بالقادمين ، وهى كلمة تعنى « السلام » .
وقبل أن أترك فرنسا قال لى صديق مناصر لاسرائيل بلا أى تحفظات : « سترى بنفسك أن كلمة « السلام » هى التى ستسمعها فى أغلب الأحوال .. ولقد سمعتها بالفعل ولكنى لم آت هنا سعيا وراء الكلمات . كنت أريد أن أتفهم الحقيقة التى تعبر عنها الألفاظ فالكلمات تستر الحقيقة أحيانا فماذا كانت تعنى بالضبط كلمة « سالوم » هذه ؟ .

لن أنسى أبدا هذه الليلة الأولى . كان التاكسى عبارة عن سيارة أمريكية ضخمة قديمة زودت بمقاعد اضافية . كنت أستقل وحدى تلك الكاديلاك التى فقدت أبهتها الغابرة . وعلمت فيما بعد أن تصرفى هذا كان ضربا من الرفاهية ، وأن الناس يشتركون هنا عادة معا فى ركوب التاكسيات . كانت المنازل المسطحة والمتشابهة تبرز أمامى فى الظلام . ومع الاقتراب من المدينة زاد عدد الاعلانات المكتوبة بحروف عبرية مضاءة بالنيون . كانت حركة المرور نشطة ، وكان هناك عدد كبير من مستوقفى السيارات ، وأغلبهم شبان وشابات من العسكريين ، يرفعون الخنصر ، مستخدمين تلك الايماءة المتعارف عليها دوليا للركوب . كان العسكريون فى أعداد هائلة .

كان السائق لا يتكلم سوى العبرية والبولندية . أما الانجليزية فكان لا يعرف منها سوى كلمة واحدة It is beautiful « شىء رائع » . والحق أن اضفاء هذه الصفة على مدينة تل أبيب ضرب من التفاؤل الساذج . كان السائق يعرف أيضا الحساب بالدولارات ، المفضلة لديه بكل وضوح عن الجنيهات الاسرائيلية (٧ جنيهات مقابل دولارين بالتحويل الرسمى . وان كانت القوة الشرائية لكليهما مختلفة الى حد كبير) .

ووقع أول حادث لى فى مدخل الفنـــدق • فترك فى نفسى احساسا عميقـــا بالضيق • وكثـــيرا ما ترددت فى روايته نفرط منافاته للياقة فى مفاهيم الفرنسيين • كن حامل الحقائب يدعى « عزرا » • وكان ودودا ، ثرثارا ، لطيفا ، ككل من قابلتهم هنـــا بوصفى زائرة عابرة • وقال لى موظف الاستقبال « هذا هو عزرا ، وهو سيرافقك » • وأردف قائلا بعد ذلك مباشرة ، بلا أى فاصل آخر ، كما لو كان الأمر طبيعيا للغاية : « عزرا جاويش فى صفوف جيشنا » • ونظرت الى عزرا الذى بدا عليـــه بعض الحرج • وقد أشعرنى هذا التقديم غير المتوقع بالضيق ، وخاصة عندما أكد لى موظف الاستقبال بابتسامة جديرة بأم تعدد محاسن ابنتها التى بلغت سن الزواج : « وهو بالطبع مستعد لتكرار الأمر ، أليس كذلك يا عزرا ؟ » •

على أن انغلاق أبواب المصعد الأوتوماتيكيـــة أعفت عزرا من الاجابة • وقد تحدثت معه فيما بعد ، وأستطيع أن أقول أن حماسه الحربى لم يكن طاغيا • غير أن هذه الحـــكاية أثارت قلقى على ضآلتها • لقد انتهت الحرب منذ ستة شهور أو بالأحرى ، لقـــد توقفت المعارك • فلماذا اذن هذا التحبيذ بـــكل بساطة (لتكرار الأمر » ؟ •

من الواضح طبعا أن موظف الاســـتقبال غبى عن جدارة ، ولكن المسألة لا تنحصر فى هذه الحدود فقط • فما تيار العقليـــة الذى ينتمى اليه هذا الموظف وما القوة الحقيقية لهذا التيار ؟ هـــل يتمرغ رجل الشارع العادى فى نفس هذه المياه العدوانية أم أنه متشكك فى حقيقة أمرها ؟ •

تكره الشعوب الحرب بطبيعتها ، على أنه من الممكن خداعهـــا

حول أسبابها وحول شرعيتها • فما رأى رجل الشارع الاسرائيلى فى حرب الأيام الستة الخاطفة ؟ وما توقعاته بالنسبة للمستقبل ؟ •

يقول التعداد الرسمى الذى تم فى سبتمبر ١٩٦٦ أن اسرائيل تضم ١٠٠ ، ٦٤٣ ، ٢ نسمة من بينها ٧٠٠ ، ٣٣٣ ، ٢ يهودى • وتحتل تل أبيب المركز الأول بين المدن الكبيرة بسكانها الذين يبلغون ٤٠٠ ألف ، كلهم من اليهود تقريبا • وهى تسبق حيفا فى هذا المضمار اذ أن سكان حيفا يقدرون بحوالى ٢٠٠ الف • ومن الصعب أن يقول المرء عن مدينة انها قميئة • فالمدن كالنساء ، وهناك دائما محبون لا يرتاحون لمثل هذا الوصف • أما بالنسبة لى شخصيا ، فان تل أبيب لا تستطيع أن تصمد فى نظرى أمام حيفا الساحرة ، أو أمام أورشليم النبيلة •

لا شك أن تل أبيب مدينة تجارية حية ، بها عدد خارق للعادة من المحال المتلاصقة ، ومن الباعة الذين يعرضون سلعهم فى الطريق العام ، وبها حركة دائبة على الأرصفة ، وفى الشوارع ، وجرائد تصدر بخمس عشرة لغة وسيارات نقل عام تغص بالركاب ، ومقاه وأطفال يتدحرجون بين سيقان المارة • وهناك أيضا هذا الخليط الذى يؤكد ــ بشكل مناقض للظاهر ــ الشخصية الخاصة لهذه المدينة ذات الطابع المهجن الذى يجمع بين افريقيا ووسط أوروبا • وهناك السيدات المسنات اللاتى يقدمن الحلوى المكسوة بطبقة من الكريمة ، بينما تقوم عاملات يمينيات بعيونهن السوداء الواسعة التى تخفى الأسرار ، بتطريز الذهب والفضة •• ومن وجهة النظر المعمارية ، يشعر المرء بانعدام الابتكار الى حد ميئس • فهناك عدد من ناطحات السحاب المنبثقة وسط بركة » من المكعبات البيضاء الرتيبة المتشابهة • أما برج هرتزل ، وهو يحمل اسم مؤسس الصهيونية الذى يحظى بتكريم خاص ، فهو لا يتناسب اطلاقا مع كل ما يحيط به حتى انه يبدو كالزرافة

التائهة . وهناك فنادق كبيرة ، وان كانت تفتقد الرشاقة ، ومنها فندق « دان » وهو كتلة ضخمة تبدو بالرغم من ذلك هزيلة بجانب الهيلتون الهائل المبنى برءوس أموال أمريكية على أرض كانت من قبل مدافن للمسلمين . وهكذا يخلق الواقع أحيانا رموزا تتخطى حدود الخيال أما فندق « ديبورا » ، فهو أكثر تواضعا ، وان كان يتميز بطابع خاص ملفت للنظر : فهو يتبع من الناحية المالية جماعة دينية ، وهو الوحيد الذى يحترم بدقة قيود عطلة يوم السبت من بين كل الفنادق الراقية ..

ويوجد فى القدس مقر الحكومة والكنيست (البرلمان الاسرائيلى) أما تل أبيب فهى المركز الاقتصادى والثقافى الأساسى . ففيها جامعة ومتاحف ونشاط مسرحى وموسيقى واسع . وتتسع قاعة « مان » الموسيقية لثلاثة آلاف مستمع وهى تقع فى نهاية شارع روتشيلد !! . والقاعة رائعة ، ولكنها نتاج الهبات المغدقة من الخارج شأنها شأن أغلب المنشآت العامة . وقد تبرع ببناء هذه القاعة بالذات أمريكى يدعى فردريك مان . وتل أبيب مقر السفارات أيضا . وهناك مكتبة ضخمة ملحقة بالسفارة الأمريكية مزودة بلوحات دعائية من بينها لوحة لتمثال الحرية الأمريكى ، وهو يعلن حق اسرائيل فى « حدودها التاريخية » .. التى جاءت فى التوراة . أما سفارة فرنسا فيقف أمامها من آن لآخر حاملو اللافتات الذين يحتجون بلا حماس على السياسة الديجولية .. وقد رأيت سيدة شابة تحولت الى امرأة « فى هيئة سندويتش » وعلى ظهرها لافتة مزخرفة بعدد كبير من علامات التعجب . وتقول اللافتة : « لقد طردتنى بالأمس يا ديجول من الجزائر . فهل تريد فنائى اليوم ؟! » .

وفى الليل لا تغمض تل أبيب الا عينا واحدة . وتظل المطاعم

والمقاهي مفتوحة حتى ساعة متأخرة لتغرق الساهرين فى الفولكلور وأضواء النيون ، بل هناك أيضا جولات سياحية لمشاهدة تل أبيب فى الليل ، فتطوف المدينة مجموعات من الأمريكيين والكنـــديين الباحثين عن ملكات سبأ • ويتميز هذا النوع من النشاط بنفس القدر من الضحالة الذى يعرف به مثيله فى العواصم الغربية •

كل ذلك قائم ومتحرك ومتطور • ولكن يجب ألا تخدعنـا المظاهر • فنسيج تل أبيب قوامه شيء آخر مختلف عن ذلك • لسنا هنا بصدد انتقالة عفوية • فقد نشأت تل أبيب من خـــلال يافا لتطغى عليها ثم تستوعبها • واسم يافا يذكر الفرنسيين بلوحـة للمصور «جرو» تمجد بونابرت اذ تصوروه وهو يواجه بكل جسارة المصابين بالطاعون ، بوجه سافر وأسارير هادئة بينما يدير ضباطه وجوههم أو يخفون أنوفهم فى مناديلهم •• على أن يافا ترجع الى أصول بعيدة موغلة فى ظلمات التاريخ • وهى تعتبر من أقدم مدن العالم ويحتمل أن تنبع تسميتها أصلا من اللغة الفينيقية ومعناها « الجمال » •

ومن يافا استقل يونس قاربه ليقوم برحلته داخل جـــوف الحوت • وتقول الأسطورة ان فرساوس أنقذ اندروميدا من براثن وحش البحار على أحد صخور خليج يافا • وهكذا ترتبط الأساطير بهذا الميناء • الذى استخدمه الملك سليمان فى نقل مواد البنـــاء للمعبد الذى أقامه • وعلى مر التاريخ تعاقب على هذه البلاد يهوذا المكابى والرومان والصليبيون والفرنسيون والانجليز والأتراك ، فترك كل منهم أثرا له فيها الى أن وفد اليها فى عام ١٨٩٦ عدد من المهاجرين الاسرائيليين حيث أسسوا حيين يهوديين والمدينـــة لا تزال تحت الحكم العثمانى •

وفى عام ١٩٠٩ ، تبادر الى أذهان سكان الحيين اقامة مركز

يهودى صرف على الساحل وخارج حدود المدينة ، واشتروا أراضى واستقروا نهائيا فى عام ١٩١٠ على تسميتها « تل أبيب » ٠

وتزايدت حركة الهجرة بعد هزيمة العثمانيين فى عام ١٩١٨ وفرض الوصاية البريطانية على فلسطين ٠ وفى عام ١٩٢٣ استقلت تل أبيب اداريا عن يافا ٠ وكانت الخلافات بين الطائفتين العربيـــة واليهودية قد تفاقمت ، واتخذت طابعا عنيفا بتعد السياسة الدءوبة التى انتهجتها انجلترا ٠ ووصلت الاصطدامات المسلحة بين الطرفين الى ذروتها فى سنة ١٩٤٨ عندما قامت فرق الكوماندوز الاسرائيلية بغارات ليلية على الأحياء العربية ، فنسفتها الواحـــــد تلو الآخر ٠ وفى ١٣ مايو ١٩٤٨ ، أى قبل أن تشن الدول العربيـــــة الحرب بصفة رسمية على اسرائيل بيومين ، كانت يافا قد تم احتلالها وهرب سكانها العرب بطريق البحر ٠ ولا يوجد الآن فى يافا سوى خمسة آلاف عربى على أقصى تقدير ٠ وفى الطريق من تل أبيب الى يافـــا التى لم تعد سوى ضاحية لها ، يجتاز المرء أراضى فضاء أقرب الى أن تكون منطقة حرام تغطيها آثار التخريب وتشبه ما نراه فى المدن التى دمرتها الغارات الجوية ٠

وهنـــاك أشياء أخرى يستشعرها المرء وهو فى تل أبيب ٠ فهناك المهاجرون الهاربون من حركات الاضطهاد ومعســـــكرات الاعتقال وأفران حرق الأحياء ، وأيضا الرجال والنساء المجردون من أية ملكية والمطرودون من أوطانهم منذ عشرين سنة ليعيشوا كلاجئين فى أراض صديقة ولكنها غريبة على أى حال ٠ ولكن هناك احساس يسيطر على كل أساليب التفكير وعلى كل التقـديرات السياســـية اذ يسود بين الناس هنا يقين متأصل وراسخ فحواه أن استخدام القوة مع العرب هو الأسلوب الواقعى الوحيد ٠ ويسود هـــذا التفكير فى جميع أنحاء اسرائيل ولكنه ملحوظ بشكل خاص فى

هـذه المدينة التى تكون مع القدس جناحى الواجهة التى ترمز لاسرائيل ٠

واذا أبدى المرء تشككه في صحة هذا التقدير أو عارضه فانه يقابل فورا باعتراض ساخط ، تصحبه السخرية أو ابداء الأسف ، حسب اختلاف الحالات والأمزجة ٠ وقد تتفاوت الآراء الى حد ما ، ولكنها تسير كلها في خط واحد ، اللهم الا حالات نادرة ٠ وقد عبر لى عن هذا التفكير بكل عنف صاحب مكتبة بالرغم من أنه مثقف ويتكلم الفرنسية باتقان يدعو للاعجاب ٠ قال لى الرجل : « هؤلاء القوم لا يجدى معهم سوى استخدام العصى » ٠

هل يعنى ذلك أن كل العرب مبرءون من الخطيئة ؟ لا بالقطع فالاندفاعات الملتهبة للشقيرى الذى تخلص منه الفلسطينيون أخيرا بعد أن كان يدعى أنه يمثلهم ، والحدة الوحشية لبعض الرسامين والمعلقين الاذاعيين تعبر عن تصرفات غير مسئولة وغير محتملة ٠ وقد لا يحق لنا أن نبرر ما لا يقبل التبرير ، ولكن يجب أن نتصور فى نفس الوقت ما يمكن أن تمثله بالنسبة للشعوب العربية سياسة دولة تتجاهل بكل وقاحة مشكلة اللاجئين وتتفاخر جهارا بانتشار وفعالية شبكات التجسس التى أقامتها فى الدول المجاورة لها ، وتناور بكل الوسائل لاسقاط الحكومات التى لا تروق لها وتسمح لوزرائها أن يعلنوا عن مطالبهم المتعسفة بضم أراض لهم باسم الحدود التى رسمتها التوراة منذ ثلاث آلاف سنة ٠

ولكن الاسرائيليين لا يريدون أن يدركوا ذلك ٠ فالتناقض الأساسى عند أغلبهم ، هو أنهم يعيشون فى قلب العالم العربى داخل نواة مثبتة وسطه فيتصرفون لا كشركاء يساهمون فى عملية تطور مشتركة ولكن كغرباء يسيطر عليهم احساسهم بالتفوق على جيرانهم ٠ ويترتب على ذلك عدد من النتائج ، على رأسها الدور

الأساسي الذى يقوم به الجيش في هذا البلد • كما ينبع من هنا أيضا الاعتقاد الراسخ بأن هجمات عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ كان لها ما يبررها ، وان كلمة « عدوان » تفقد معناها عندما يتعلق الأمر باسرائيل • ومن هذا التناقض ينبثق ذلك الترحيب المطلق الذى تصادفه الأفكار التوسعية والمغامرة التى ينادى بها رجل مثل « موشى ديان » •

وتعيش اسرائيل اليوم على عبادة حرب الأيام الستة • ويكفى المرء أن يتكلم مع الناس هناك ليلاحظ ذلك • فاذا ذهبت الى مطعم قدموا لك « سلطة موشى ديان » وخضروات « ٦ أيام من يونيو » وكوكتيل « الحرب الخاطفة » • ويصادف المرء نفس الشىء اذا ألقى نظرة على واجهات المحلات • ففى كل المكتبات أماكن مخصصة لعرض مطبوعات ذات عناوين وأغلفة موحية ، مثل « الحرب الخاطفة » و « الستة الأيام الحاسمة » و « الساعات الفاصلة فى حياة اسرائيل » و « ريح السيف » وهى تشيد جميعها بالانتصار وتفيض بتمجيد الجيش • وفى وسع المرء أن يشترى عند باعة التذكارات تماثيل صغيرة للجنرال ديان أو رابين أو آلون أو غيرهم فى كل الأشكال مثل : منافض السجائر ، المناديل ، الملاعق الصغيرة ، الأكواب ، أدوات المائدة •• وشاهدت فى محل لبيع الملابس يقع فى وسط تل أبيب تمثالا لموشى ديان بالحجم الطبيعى يقف بين مجموعة من تماثيل عرض الملابس ، يحمل فى يده رقم ٦ وكأنه يقدم للجمهور موضة الشتاء •

ان اسرائيل تبحث عن الطمأنينة بالاستغراق فى التأمل الذاتى لانتصارها ، ذلك لأن القلق الشعبى كان عميقا وحقيقيا • ومن هنا يبدأ التناقض • فهناك أشياء كثيرة يمكننا أن نجد تفسيرا لها لا فى ذلك القلق ولكن فى الاستخدام الواعى والمدروس لهذا القلق من جانب الرجال الذين يتولون زمام الأمور فى اسرائيل •

٢- القدس .. الآن

* * *

لم أر فى حياتى سماء أكثر صفاء من سماء القدس ، وبخاصة فى الليل عندما يكون الظلام نفسه شفافا دون أن يشوبه أى ضباب عالق بالجو ودون أن يعترض شىء الطريق بين النجوم والأرض • وتمتد هذه المدينة فى جمال هادىء نبيل لتتموج على ايقاع تلالهـــا الخضراء الداكنة • ويطلق العرب عليها مدينة « القدس » ويسميها الاسرائيليون « أورشليم » :

وحتى يونيو ١٩٦٧ كانت القدس مقسمة الى جزأين • وكانت الأمم المتحدة قد قررت تدويل المدينة فى عـــام ١٩٤٧ بالنظر الى طابعها الخاص الفريد ، وبالنظر الى ســـكانها المتميزين • ولكنها أصبحت نصف اسرائيلية نصف أردنية على أثر حرب ١٩٤٨ • وقد ألغيت الآن الحدود الداخلية فى المدينة وأصبحت تحت السيطرة الكاملة لاسرائيل • ولم يتم ذلك دون عنـاء • فقد شهدت المدينة معارك عنيفة لا تزال آثارها المادية واضحة •

وبمجرد وقف القتال ، أعلنت حكومة أشكول بكل وضوح أن توحيد المدينة تحت لواء اسرائيل اجراء لا يمكن الرجوع فيه ، تبرره اعتبارات تاريخية وروحية تعتمد على نصوص التوراة وعلى التراث اليهودى • ولكن من الواضح أن السبعين ألف عربى الذين يعيشون حتى الآن فى القدس ـ بعد أن تركهـــا ثلاثون ألفا ـ لا يوافقون على هذا الرأى • فبالرغم من توحيد المدينة الا أنها تملى على المرء الاحساس بأنها مدينة ممزقة تمزيقا عميقا لقد توقف القتال ، ولكن السلام لا يجد لنفسه مكانا لا فى القـــلوب ولا فى المناخ السـائد • ويحس المرء ذلك فى الجو العـــام وفى آلاف التفـاصيل

الصغيرة • ففي كل غرف الفندق التابع لجمعية الشبان المسيحيين القائم بالمنطقة الاسرائيلية ، يوجـــد منشور بالتعليمات الواجب اتباعها في حالة وقوع غارة جوية • ويوضح المنشور أنه توجـد شمعة في درج الكومودينو لاستخدامها في حالة انقطاع التيـار الكهربائي • واذا أبدى المرء دهشته ، جاءت الاجـابة مصحوبة بابتسامة مقتضبة : « لن يستمر الوضع على ذلك •• » •

فما هي « ذلك » هذه ؟ اذا كانت المدينة الاسرائيلية لا تزال على حالتها ، فان المدينة الأردنية تعيش في خفوت • فعندما يهبط الليل لا يطرق الشوارع الا مشاة قلائل يسرعون الخطى بالرغم من انهاء حظر التجول • والمطاعم مقبضة وشبه خاوية ، ويسود الصمت فيها فور دخول المرء بصحبة اسرائيليين • فكل شيء هنا يوحي بأن المدينة تمسك أنفاسها وتنتظر •

لا تزال المدينة العربية المسورة تنبض بالحياة ، من خـلال طرقها المتعرجة ، وشوارعها المسـقوفة ، ودكاكينها المتلاصقة ، وأطفالها الذين ينتشرون يركضون في كل مكان ، وحميرها الناهقة من أحواش متوارية وروائحها ونداءاتها وأسرار نوافذها الحديدية • على أن المرء يشعر أيضا بحالة عدم استقرار تسود الجو • لا شك أن السياح يتوافدون ، وتجارة « التذكارات » مستعدة للترحيب بهم وهي تقـدم لهم مصنوعات من خشب الزيتون ومنسوجات مطرزة بالذهب وحليا •• ولكن المرافقين لا يدلونهم الا على ظاهر الأشياء فقط • انهم لا يتوغلون في القدس الخفية والمتحركة تحت سطح معتم من المظاهر الكاذبة • وعلى كل ، لم يحضر سياح أجانب هذا العام ، حتى في أعياد الميلاد ، لزيارة الأماكن المقدسة • أما السياحة الداخلية فقد نمت اذ توافد الناس من كل أنحـاء اسرائيل على

القدس ، ولكن هذه السياحة لا تقدم البديل لا من حيث العملات ولا من حيث الدعاية ٠

وقد بدأت عملية تهويد القدس على نطاق واسع ٠ وأعلن رئيس الوزراء بنفسه خطط الحكومة بهذا الصدد ٠ وهى تتضمن سياسة اسكان تهدف الى توطين الأهالى اليهود على نطاق واسع ونقل مقر الحاخام الأكبر ، وهو أعلى سلطة دينية ، من تل أبيب الى القدس ٠ وتشرف الشرطة على المستشفى الاسلامى ٠ وقد أقيم بالمدينة احتفال كبير بمناسبة العيد السنوى للشرطة ٠ ولا يخلو هذا الاحتفال من مغزى ٠ وقد خصصت جريدة «جيروساليم بوست» مقالا افتتاحيا للشرطة ومرشديهم (الذين يسمون فى أى مكان آخر « الوشاة ») لما بذلته من جهود من أجل اتمام عمليات القبض ٠

وبمناسبة الكلام عن توحيد القدس ، كتب شاعر عربى قصة جديرة حقا بالتأمل ٠ فقد دخل السجان زنزانة رجل أمضى فى السجن عشرين عاما ، وقال له « لك أن تفرح ، ستتمكن من رؤية اخوتك » فصاح السجين : « حقا ؟ هل سيفرج عنى اذن ؟ » غير أن السجان أجابه : « لا ، ولكن اخوتك سيفدون عليك فى السجن » ٠

ان مشهد حائط المبكى مخيب لآمال كل من لا ينظر اليه من خلال الايمان ٠ فالحائط من حجارة غير متناسقة لفحتها الشمس ٠ وهو مقسم الى ثلاثة أجزاء : الجزء الأوسط وهو الأكبر مخصص للرجال ، والجزءان الجانبيان مخصصان للنساء ٠ وتوجد حواجز عند المدخل ويقوم جندى شاب بتوزيع أغطية للرءوس من الورق الأسود اللون على الذين لم يفكروا فى احضار ما يلزم لتغطية الرأس ٠ وقد ألقى هذا الجندى نظرة لا تنم عن الود نحو صديقى الذى يرافقنى ولكنه تركنا نمر ٠ وكان أحد العسكريين المتولين

الحراسة قد رفض ادخال جماعة من السياح الى المكان ، بحجة وجود أفراد من غير اليهود بينهم • وقد ألغيت هـــذه التعليمات بعـــد سلسلة من الاحتجاجات نشرتهـــا جريدة « جيروساليم بوست » الموالية للحكومة على طول الخط •

ومع أن هناك أناسا كثيرين يزورون حائط المبكى الا أنهم لم يعودوا كالجماهير التى تدفقت فى بداية الأمر • فقد وقفت اسرائيل بأسرها أو أغلبيتها على الأقل أمام هذا الجدار بعـــد أن مر الجيش أمامه • والواقع أن المواطنين الاسرائيليين كانوا لا يســتطيعون دخول المنطقة الاردنية من القدس حيث توجد الأماكن المقـــدسة الخاصة بالأديان الثلاثة بسبب عدم اعتراف البلاد العربية بدولة اسرائيل • وقد جاء البعض بدافع من الشعور الدينى الصادق • وهؤلاء يقيمون الصلاة وقوفا ويقبلون الحجارة • ووجودهم هنـــا يتمشى مع وجود مؤمنين آخرين ينتمون الى عقائد أخرى ، ويؤدون شعائر مختلفة فى جامع عمر أو فى كنيسة القبر المقدس • على أن عدداً كبيراً من الذين حجوا الى حائط المبـــكى لم يأتوا فى الواقع الا بدافع من الاحساس الوطنى • لقد اعتبر الاسرائيليون القـــدس عاصمة لدولة اليهود حتى فى أيام التقسيم • ويوجد بالمدينة مقـــر الحكومة والبرلمان • ويثور الاسرائيليون عند مجرد التشكيك فى ملكيتهم لها • فالقدس هى صهيون ، والعودة الى صهيون هى الحلم القديم للطوائف اليهودية •• المنتشرة فى أنحاء العالم ، اذ يرددون : « العام القادم فى القدس •• »

وتخفى هذه المثابرة الدءوبة مشكلة مخيفـــة ذات تعقيدات سياسية ضخمة •

لقد قامت الصهيونية على فكرة أرض الميعاد والعـــودة الى

اسرائيل البلد الذى عينه الله لابراهام ، ووعد به أعقابه والرجوع الى أرض كنعان التى تتوجها أورشليم مدينتها المقدسة ٠

وقد كتب تيودور هرتزل ، المؤسس الحقيقى للصهيونية الحديثة فى مذكراته فى بداية هـذا القرن ، كتب يقول بخصوص وضرورة مد حدود الدولة اليهودية المرتقبة حتى قناة السويس : « يجب أن يكون شعارنا : فلسطين داود وسليمان » ٠ وقد أوضح هرتزل فى فقرة أخرى الحدود الجغرافية للدولة التى يتمناها : « المساحة : من نهر مصر (النيل) الى الفرات » ٠ وقد قام المؤتمر الصهيونى الأول المنعقد فى مدينة بازل سنة ١٨٩٧ ، على أسس لم يتنكر لها أحد حتى الوقت الراهن ، بل ان هنـاك على العـكس فيض من التصريحات الرسمية المؤكدة لقرارات المؤتمر ٠ ففى عـام ١٩٥٥ حرص الكتاب السنوى لدولة اسرائيل على ايراد الملحوظة التالية : « ان انشاء الدولة الجديدة لا يلغى بأى حال من الأحوال الحـدود التاريخية لأرض اسرائيل ٠ وعلى أثر حرب ١٩٥٦ أنكر بن جوريون حـدوث أى عدوان ، لأن سـيناء فى مفهومه « ترتبـط تاريخيا بفلسطين » ، وانه لا يمكن أن يرتكب الانسان عدوانا على نفسه ٠

وقد ولد تيودور هرتزل فى بودابست عام ١٨٦٠ ٠ وتوصل الى الصهيونية بعد أن حضر محاكمة دريفوس فى باريس كمراسل لجريدة « نيوفرى برس » النمساوية وقد أثارته هذه المحاكمة وهزته حتى دمغت حياته بأسرها ٠ ويجب أن نتذكر أن هذا التحول حدث فى فترة كانت الظروف تسمح فيها للـكاتبة الروائية الفرنسية « جيب » أن تجيب على المحكمة من منصـة الشهود عنـد سؤالها عن مهنتها ، فتقول : « معادية للسامية » ٠٠ ومنذ هذا العهد زادت ألوان العذاب التى لاقاها اليهود مع جرائم الهتلريين ، مما أضاف مزيدا من المآسى الى ملف القضية ولكن يجب ألا تتصور هـذه

الدولة اليهودية التى قالت فى اعلان تأسيسها انها « ستساهم فى تقدم الشرق الأوسط فى مجموعه » أن هذا التقدم يتمثل فى أكثر من توسعها الذاتى على حساب جيرانها ·

وتختلف وجهات نظر الأحزاب الداخلية فى التآلف الوزارى الحالى فى اسرائيل حول مستقبل هذه الدولة ، ولكن القوى القائدة للدولة تؤيد بشكل أو آخر التوسع فى أراضى اسرائيل ، سواء باسم « الحقوق التاريخية » أو باسم « الحدود الآمنة » ويتضح ذلك من التصريحات المتعددة على اختلاف لهجاتها · ويكرر كل من السيد أشكول والسيد ايبان ، وزير الخارجية « نحن لا نريد أن نتوسع فى أراضينا » · وقد ردد ذلك أخيرا سفير اسرائيل فى باريس باسم حكومته · ولكن هناك تعقيبا لابد وأن يصحب هذه التصريحات فكل هؤلاء المتكلمين يعلنون بنفس القوة أنه يستحيل « العودة » الى أوضاع ما قبل يونيو ١٩٦٧ » عند الاشارة الى مرتفعات جولان وشبه جزيرة سيناء ، بل وحتى الضفة الغربية لنهر الأردن · ولا داعى للكلام عن القدس التى تم ضمها بالفعل بتحد صريح لقرار مجلس الأمن الاجماعى الذى ينص على الجلاء عن كل الأراضى المحتلة · ومن هنا يحق لنا أن نتساءل عما يمكن أن نتوقعه فى المستقبل ···

تريد حكومة اسرائيل أن تستغل الى أقصى حد ممكن مركز القوة الذى تتمتع به اليوم ، معتمدة على تفوقها العسكرى ، وعلى تأييد الولايات المتحدة وعلى مساندة المنظمات الصهيونية النشيطة والفعالة فى أنحاء العالم · وكل شعب يريد السلام ، ولا يختلف فى ذلك الاسرائيليون عن غيرهم من الشعوب · وانى لأتذكر الآن امرأة قابلتها فى « ديمونة » بالقرب من البحر الميت حيث يقيم عدد كبير من المهاجرين الوافدين من شمال أفريقيا ، كانت تكلمنى بشكل توجس عن الحرب · وكانت تبدى استياءها من حديث أدلى به بن

جوريون فى الاذاعة . كانوا قد سألوه ما هى توقعـــاته بالنسبة للمستقبل ، فأجاب « الحرب » ، وسأله المذيع مرة أخرى « وماذا بعد » فأجاب بن جوريون « وحرب أخرى » .. كانت المرأة تنظر لأطفالها الثلاثة والدموع تطفر من عينيها ، وهى تتكلم . ولكن عندما سألتها عن الطريق المؤدى الى السلام لم تجد سوى كلمات الازدراء والعنف .

والحكومة نفسها ، تعى تماما ما تريد . وكانت تعرف بالأخص حقيقة قوى الطرفين . كانت أجهزتها السرية التى تتفاخر بها بلا تواضع وتقول عنها صحافة اسرائيل انها « أحسن أجهزة مخابرات فى العالم قاطبة » قد قدمت لها معلومات دقيقة وكاملة . ولم تعلن حرب الأيام الستة الا لأن القيادة العليا الاسرائيلية كانت تعـرف بلا أى لبس ، ما ستواجه به وأين ستواجه به . ويثور الاسرائيليون اذا قيل لهم انهم كانوا غزاة معتدين ، ولا يتصورون أنفسهم الا فى هيئـــة داود الصغير المنتصر على المـارد جالوت الشرير ، بفضـــل شجاعته وذكائه وانتمائه الى الشعب المختار . ولا شك فى أن هذه النظرية على جانب كبير من المثالية . فعندما نكون بصدد حرب من هذا النوع ، وبصدد جيش حديث متفوق من حيث التدريب ، ومعتمد على عنصر المفاجأة ، فان فرص الانتصار تكون فى جانبه فى أغلب الأحوال . وقد قال لى أحد الضباط المتصـــلين عن قرب بأركان الحرب : « كانت لعبة بوكر ، ولكننا اســـتطعنا أن نرى أوراق العدو » .

يقضى كل مواطن اسرائيلى جزءا من حياته فى الجيش ، ولا يعفى من ذلك الا فى حالات نادرة . وتشمل الخدمة العسـكرية الرجال والنساء ، وهى تمتد ٢٦ شـــهرا للشـــبان و ٢٠ شهرا للشابات ولا يستثنى منهن الا الفتيات المنتميات الى الأسر اليهودية الشديدة التمسك بالتقاليد الدينية ، وبناء على طلبهن . ويجدر

بنا أن نذكر أن مدة الخدمة زادت ستة أشهر لمواجهة الاحتياجات الجديدة التى فرضتها المناطق المحتلة • ويتفق سن أداء الخدمة مع انتهاء الدراسة الثانوية • وتؤدى النساء المتزوجات الخدمة شأنهن شـــأن بقية المواطنين ، ولا يعفيهن من ادائها الا انجاب الأطفال • ولا يتمتع بالتأجيل الا عدد محدود للغاية من طلبة الجامعة العبرية بالقدس والكلية الفنية (تكنيكون) فى حيفا •

ويظل الرجال تابعين لقوات الاحتياط حتى سن التاســعة والأربعين • أما النساء اللاتى ليس لهن أبناء ، فيبقين فى الاحتياط حتى الرابعة والثلاثين • ومن جهة أخرى يلتزم كل أفراد الاحتياط بالخدمة مدة ٣٠ يوما متواصلا ويوما كاملا كل شهر أو ثلاثة أيام متواصلة كل ثلاث شهور • وفى الحالات الاستثنائية ، كما هو الوضع الآن ، يمكن استـــدعاء أفراد الاحتياط حسب احتيــاجات القيادة • والغرض من فترات الاستدعاء « الحفـاظ على المستوى العسكرى ورفعه والتدريب على استخدام الأسلحة الجديدة » • وفى فترات السلم ، تجرى تدريبات على التعبئة على فترات متقاربة • وتوجد تحت تصرف كل وحدة احتياطية مخازن الأسلحة والذخائر والمعدات المختلفة الخاصة بها •

وهكذا تسير الحياة الاسرائيلية كلها على ايقاع العســكرية فلا يفلت منها أى مواطن • والجيش قادر على استيعاب أى مواطن فى أى لحظة وعلى اخضاعه لقوانينه • وهو يقـوم بدور كبير فى التكوين الذهنى والأخلاقى للفرد ، باعتباره استمرارا للمرحـلة الدراسية ، ويرمى الى تطويع الفرد وطبعه بعقلية الدولة • ويخضع الجيش أفراده للقانون الدينى ، شأنه فى ذلك شـــأن الدولة • فهناك معبد لكل تشكيل عسكرى ، كما يتسلم كل جندى نسخة من التوراة بوصفها « التراث المشترك الذى تقوم على أساسه وحـدة الأمة » ، على حد قول المصادر الرسمية • ومن جهة أخرى ، يلتزم

كل جندى بأن يأكل « كاشير » وأن يخضع لقيود الطعام اليهودية المطبقة فى كل مطابخ الجيش ٠

لاشك أن الجيش الاسرائيلى يميل الى تفضيل القوة على المفاوضة ، والهجوم على المناقشة ٠ ويحتل الجيش وقواده مركزا متضخما ، وليس سراً على أحد أن هناك على الأقل جنرالين وهما ايجال آلون وزير العمل وموشى ديان وزير الدفاع يسعيان الى الحلول فى رئاسة الوزارة ٠ على أن وجود أكثر من طامع فى هذا المنصب يقلل من فرص وصول القادة العسكريين اليه ٠ ولكنهم يفكرون فى الأمر ، وهم متمتعون بشعبية واسعة وبالأخص ديان ، وكل تدهور فى الموقف يكون فى صالح القادة العسكريين ٠

أما الجنرال ألوف حاييم بارلييف الذى حل فى ديسمبر الماضى محل الجنرال رابين فى قيادة أركان الحرب ، فقد أعلن يوم تعيينه فى منصبه الجديد أنه « لا يستطيع أن يتصور عملا يرضى الانسان بقدر ما ترضيه الخدمة العسكرية فى هذا البلد » ٠ وبعد أن أشار الجنرال بحزن الى المصير البائس لجنود الجيش السويسرى الذين لن تواتيهم فرصة القتال ، راح يعدد الحروب التى خاضها بنفس اللذة التى تذكر بها فتاة عدد المرات التى قابلت فيها شبانا بناء على موعد سابق ٠ وأنا أذكر ذلك لأن الجنرال بارلييف كان قد بدأ حديثه بقوله : « أنا لست من أنصار العسكرية ، ولكن ٠٠ » ٠

وتؤكد دولة اسرائيل فى نفس الوقت أنها ليست دولة عسكرية ودليلها على ذلك أن كل جنودها أو أغلبهم من المدنيين ٠ واذا كان ذلك هو الأساس فانه بوسعنا أن نعكس الآية وأن نقول أن كل المدنيين فى اسرائيل أو أغلبهم جنود و « لكن » ٠٠ كما يقول الجنرال بارلييف ٠٠٠

ولما كانت اسرائيل تحرص على أن يكون جيشها على أعلى

مستوى فى استخدام الأسلحة الحديثة للغاية فانها تهتم عن كثب بالمسائل النووية • وهى تحتفظ جيدا بأسرارها فى هذا المجال • وقبل أن تتخذ الحكومة الفرنسية موقفها الراهن المعروف ، كانت هناك اتصالات وأشكال من التعـــاون مؤكدة ـ وينطبق ذلك على ألمانيا الفدرالية أيضا • فالحصول على أسلحة ذرية لم يعد مقصورا على الدول الـكبرى •

وعندما يذهب المرء الى ميناء ايلات على البحر الأحمر ، فانه يلاحظ على الطريق مصنعا (أو ما يشبه ذلك) منعزلا فى صحراء النقب • وهذه المنطقة عسكرية بحتة لا يمكن الاقتراب منها • واذا وجهت السؤال الى من يستطيعون تقديم الاجابة ، فانهم يراوغون ويحاولون الظهـور فى ســـيماء جيمس بوند • وقد قال لى أحد الضباط : « أستطيع أن أقول لك ما هو وأن أقول لك ما ليس هو• انه مبنى عسكرى ، ولكنه ليس ذريا » • ولم تقنعنى كلماته •• وهناك اشارات ، لا تكاد تستتر ، صادرة من الدوائر المطلعة تسمح للمرء بأن يؤكد أن اسرائيل متقـــدمة للغـــاية من حيث المنشآت والدراسات • ولكن هل تملك القنبلة الذرية ؟ وهل هى قادرة على صنعها ؟ اننا ندخل هنا فى مجال الفروض المعقولة ، مما يزيد من المتاعب التى يعانيها الشرق الأوسط •

٣ - الدين والدولة

***

يقوم سراى « الكنيست » ، برلمان اسرائيل ، على أحد تلال القدس على مقربة من الجامعة العبرية والمتحف القومى · وهو بناء رائع الجمال ، ذو خطوط نقية ويتميز فى الداخل بالأناقة والفخامة الشديدتين · وقد شارك شاجال بنصيب وافر فى زخرفة المبنى · ويوجد به نوافذ من الزجاج المعشق وأعمال نحت ونسج وأوان فخارية وأعمال من الخشب والنحاس المنحوت : فالمكان جميل وفخم · ويرجع كل ذلك أيضا الى سخاء أسرة روتشيلد ·

وتحتل الصدارة فى قاعة اجتماعات النواب (وعددهم ١٢٠ فقط) صورة لتيودور هرتزل مؤسس الصهيونية · وجلسات البرلمان علنية ، ولكن حضورها يستلزم ترك المعطف والحقيبة فى غرفة الملابس · أما السيدات ، فيجب أن يتخلين عن حقيبة اليد ·· أو أى شىء آخر يمكن أن يخفى فيه سلاح أو قنبلة · وتخضع الأماكن المخصصة للجمهور لرقابة مستمرة من جانب الحجاب · وهى معزولة على أى حال عن مقاعد النواب بزجاج لا ينفذ منه الرصاص يمتد من السقف حتى الأرض ·

وتتبع اسرائيل نظام الديموقراطية البرلمانية ، ولكنه يختلف عن النظام القائم فى فرنسا ، اذ يقدم كل حزب ١٢٠ اسم مرشح فى قائمة تشمل النطاق القومى ، من أجل ال ١٢٠ مقعد ، أى أن كل نائب لا يمثل مدينة أو جهة معينة ، بل يمثل حزبا من الأحزاب على الصعيد القومى · وهكذا يحتل كل حزب عددا من المقاعد يتناسب مع حجم الأصوات التى حصل عليها ·

وللحزب الشيوعى الاسرائيلى ثلاثة نواب « يهودى وعربيان » :

ماير فيلنر وتوفيق طوبى وأميل حبيبى • وقـــد شن الجنرال ديان بالذات حملة عنيفة من أجل تطبيق نظام التصويت على نطاق الدائرة ، مما يؤدى من الناحية العملية الى الغاء أى معارضة فى الحياة التشريعية بالنظر الى الأوضاع الخاصة القائمة فى اسرائيل •

* * *

ويسيطر على الائتلاف الوزارى الحالى حزب العمال الاسرائيلى الذى تكون فى منتصف يناير ١٩٦٧ بتوحيد الأحزاب الثـــلاثة ، وهى حزب الماباى الذى ينتمى اليه السيد أشكول ، وحزب أشدوت هافودا وحزب رافى • ولا مجال للخوض فى متاهات هذه الأحزاب فى حدود هذا الكتيب • ولذا نكتفى بأن نقول أن هـــذه الوحدة الأخيرة تصحح أوضاعا كان السيد بن جوريون قد ساهم بنصيب كبير فى خلقها ، لمحاربة عدوه اللـدود ليفى أشـــكول • فعندما انفصل بن جوريون عن حزب المـــاباى (أقوى حزب فى اسرائيل ويسيطر بالأخص على الهستدروت) وأسس حزب رافى فى عام ١٩٦٥ ، ضم الى صـــفوفه رجالا من أمثال موشى ديان الذين كانوا يتصورون أن أطماعهم ستنمو وتزدهر بعيدا عن هياكل الحزب القديم الذى يتقاسم مناصبه الرئيسية قادة عقدوا العزم على ألا يتركوا مكانا للذئاب الناشئة • ولكن التقدير جاء خاطئا • فالحياة الســـياسية الاسرائيلية متداخلة مع الأجهزة الانتخابية للأحزاب التقليدية ومقيدة بها حتى أن الوصول فى المجال السياسى يعد أمرا مستحيلا خـارج نطاقها • وقد أدرك ديان هذه الحقيقة بسرعة ، وهو الذى يرمى الى الاستيلاء على الحكم بوسيلة أو أخرى ، ولذا فقد سارع الى الدعوة الى جمع الشمل ، وجر وراءه كل نواب هذه المجموعة تاركا بن جوريون يزأر وحده على الشاطىء • ولا يزال الزعيم العجوز متمتعا بتقدير واحترام كبيرين بين مواطنيه ، ولكنه أقرب الى أن يكون أثرا تاريخيا من أن يمثل قوة سياسية •

وتضم الوزارة ، الى جانب الأحزاب الثلاثة المــكونة لحزب العمال الجديد (٥٥ نائبا في البرلمان) ، « المتدينون » ، وحــركة « جاهال » والمابام • ويتميز أعضاء الحزب القومى الدينى بالتطرف الرجعي والاسراف في الدجل السياسى •• لقد استمعت الى وكيــل وزارة الداخلية ، مساعد السيد شابيرو وهو يتحدث الى بعض الطلبة في القدس • كان يضــع فوق رأسه الطاقية السوداء الصــغيرة الشعائرية وكان يبدو كئيبا بلحيته الصغيرة المدببة• أما خطابه فكان يفيض بالضحالة الفكرية فى نقطتين :

النقطة الأولى هى الانكار التام لوجود فلسطين عربية اذ قال : « كل العرب فى جميع أنحاء اسرائيل يعيشون على أراضى اسرائيل الشرعية » • أما النقطة الثانية فهى فى مجمل قوله : « لقد عشــنا عشرين عاما دون أن يعترف بنا جيراننا ، وبحدود أرحب من تلك التى منحتها ايانا منظمة الأمم المتحدة • وبوسعنا أن نعيش عشرين عاما أخرى بالأراضى الجديدة التى حصلنا عليها دون أن يعترف بنا أحد» • أما النتيجة التى توصل اليها للأسف وسط عاصفة من التصــفيق المدوى ، أثارها ٦٠٠ شاب ، فهى : « يجب ألا نتنازل عن أى شبر من الأراضى » • ولما كان أحد الحاضرين قد سأل على اســتحياء : « وماذا بعد عشرين ســنة أخرى ؟ » أجاب رجل الدين المبجل : « سنسحقهم مرة أخرى » •

وتضم حركة «جاهال» الأحرار المستقلين وحزب حيروت • وقد انبثقت هذه الحركة بشــكل مباشر من « الايرجون » وهى منظمــة ارهابية يهودية اغتالت ، فيمن اغتالت ، الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ - والورقة التى تلعبها هى « الحــدود التاريخية » الذائعة الصيت • وهى تمجد الاستخدام السافر للعنف اعتمادا على « انجذاب » التوراة التى اســتبدت بكيانها • وتحتل

حركة جاهال ٢٦ مقعـــدا فى الكنيست بينما لا يمتلك حزب مابام سوى ٨ مقاعد ٠

***

أما وضع حزب المابام « الحزب الاشتراكى » فهو غير مريح ٠ يعيش هذا الحزب على التنوع القائم فى صفوفه ٠ فجناحه الأيسر يتجاهل باستحياء ما يفعله جناحه الأيمن ٠ وقد قال لى أحد نواب هذا الحزب : فى استطاعة المرء أن يفكر عندنا كما يحلو له ٠ فأنا ، مثلا ، غير متفق على الاطلاق مع قيادة الحزب وبدا لى أن هذا الوضع لا يقلقه أبدا ٠ فحزب المابام يؤيد الوزارة التى يشترك فيها وهو يصوت فى صفها فى البرلمان ولكنه ينتقدها خارجه ٠ ولما كان هذا الحزب موزعا بين اتجاهات مختلفة ، فهو قادر على أن يتشـــكل فى صور متباينة أمام من يتعامل معهم ٠ فهو يمنح اليسار ما يريد ويزود اليمين بما يحقق له الطمأنينة ٠ وحزب المـــابام متغلغل فى حركة « الكيبوتز ، ويحاول بذلك أن يحقق التوافق المستحيل بين الاشتراكية والرأسمالية وبين الفكر القومى المتطرف والفكر التقدمى ٠ ولا يقول هذا الحزب فى تعريفه لنفسه انه « حزب صهيونى » بل « نصـــير تجمع الشـــعب اليهودى » ٠ على أن وزراءه يجلسون بجوار ديان وبيجين ٠

ويضم المابام كل الأصناف بين صـــفوفه ، ففيه الانتهازيون والديمقراطيون المخلصون ، الباحثون حقـــا عن حل مشرف للنزاع اليهودى العربى ، والذين يتظاهرون فقط بالرغبة فى الوصول الى هذا الحل ٠ وكثيرا ما يتردد الكلام عن الروح الدولية عند حزب المابام ، ولكنه (أى هذا الكلام) لا يلقى ترحيبا من انسان تشبع حقا بالعقلية الدولية ٠

وقد وجهت سؤالى بخصوص تنفيذ قرار مجلس الأمن ، والجلاء

عن الأراضى المحتلة لرجال يعتبرون أنفسهم من أقصى يســار حزب المابام ، فلم يوافق واحد منهم على ذلك بشكل كامل • كانت الموافقة مرهونة دائما بشروط ومشمولة بتحفظات •• والحق أنه من العسير الحصول على إجابات واضحة من حزب المابام المحاصر وسط تناقضاته• وهو يعانى حاليا من تدهور نفوذه مما يؤكد مرة أخرى أن التذبذب نادرا ما يكون مجديا •

***

وقد مر الحزب الشيوعى بتجربة قاسية فقد توصل جناح منه (جماعة ميكونيس ـ سينيه) الى تقويض وحدته بعد أن خرج على فكرة الاممية البروليتارية ، وعلى تضامن العمال اليهود والعرب ، وعلى الصداقة مع الاتحاد السوفيتى • وقد أدى هذا الانقســام الى اضعاف الحركة العمالية الاسرائيلية بأسرها ، وساهم فى توســيع الهوة بين اليهود والعرب • ويوجد حاليا فى اسرائيل حزبان شيوعيان اسرائيليان بالاسم ، أحدهما حزب جماعة ميكونيس ـ سينية والآخر يتولى سكرتاريته العامة الرفيق ماير فيلنر • وحزب فيلنر هو الحزب الوحيد فى اسرائيل الذى يكافح حقا من أجل المصالح الحقيقية لشعب اسرائيل ومن أجل الحفاظ على السلام فى الشرق الأوسط ، بينما أيد حزب سينيه عدوان يونيو ١٩٦٧ • ويحتاج المرء الى قدر كبير من وضوح الرؤية والشجاعة للدفاع عن الموقف السليم وســـط جو التطرف القومى السائد فى اسرائيل • والشجاعة المطلوبة أدبيـــة ومادية فى آن واحد ، ففى ١٥ اكتوبر الماضى تسبب قاتل شاب فى اصابة ماير فيلنر بجراح خطيرة فى محاولة لاغتياله بسكين أمام منزله بتل أبيب •

على أن الحزب الذى يقوده ماير فيلنر ضعيف التأثير للأســف بين الأوساط الاسرائيلية المشبعة بالعقلية الصهيونية ، ولكنه يتمتع بتأثير عميق بين العرب • على أن حرص هذا الحزب الشديد على الحفاظ

على طابعه اليهودى العربى وعلى علاقاته الأخوية مع الحركة العالمية يلقى ضوءا متميزا على احتمالات المستقبل وأبعـاده • ولذا لا يوجد ما يدعو الى البحث فى أى مجال آخر عن أسباب الحقد المجنون الذى تضمره له بعض الأوساط الاسرائيلية •

***

تنفى دولة اسرائيل عن نفسها أنها حكومة دينية • ومع ذلك فان حياة المواطنين فيها مدموغة بالدين • فاعلان الاستقلال متشرب بالديانة كما أن مؤسساتها الدينية وعاداتها وقوانينها الدينية تفرض نفسها على كل شىء بل ولا يوجد سواها فى أغلب الأحوال •

فمن المستحيل أن يتزوج المرء زواجا مدنيا فى اسرائيـــل • فاليهودى غير المتدين مجبر على عقد قرانه أمام حاخام ما لم يكن على درجة من الثراء تسمح له بالسفر الى قبرص أو أى دولة أخرى يوجد فيها تشريع علمانى • واذا كان أحد المتقدمين للزواج غير يهودى فان وضعه هذا يثير مشاكل لا يمكن تخيلها فى فرنسا ، خاصة اذا كانت المرأة يهودية لأن الانتماء الى اليهودية ينتقل عن طريق الأم• فطبقا للقانون ينجب غير اليهودى المتزوج من يهودية أبناء يهودا ولكن اذا حدث العكس فان الأطفال لن يكونوا من أفراد الشعب المختار ، وتلك مأساة حقيقية فى حدود المفاهيم الاسرائيلية • ويبرز الطابع الدينى للدولة بقوة ويؤكد عن وعى حتى أنه يتخطى حدود المظهر القومى . فاعلان الاستقلال يضع على نفس المستوى الطابع « الروحى » والدينى لاسرائيل مع الطـابع « القومى » للعودة الى أرض الميعاد . وقد أورد كتيب رسمى بعنوان « الحياة الدينية فى اسرائيل » أورد مثلا يهوديا قديما يقول : عندما قاس الله كل المدن • لم تجد سوى أورشليم جديرة بأن تضم المعبد لقد قاس الله كل البلاد ووزنها فلم يجد أفضل من أرض اسرائيل للشعب

اليهودى . فالمواطن اليهودى الذى يقبل الا يعتبر أبناؤه يهودا يستبعد أبناءه بهذه الطريقة عن حياة الأمة .

ومن هنا فان قصة الفتاة «جاليا بن جوريون» حفيدة بنجوريون غنية عن كل بيان . فقد اعتنقت أمهـــا مارى ، زوجة ابن الزعيم الصهيونى ، الديانة اليهودية وهى فى لندن منذ اثنين وعشرين عاما مضت. ولكن الحاخام الأكبر لمدينة حيفا لا يعترف بوثيقة اعتناقهـا الدين اليهودى ، وبناء عليه فهو يعترض على زواج الفتاة ، وعمرها هى أيضا اثنان وعشرون عـاما ، بضـــابط من المظليين فى الجيش الاسرائيلى . ولكى تحصل « جاليا » على حق الزواج من الرجل الذى تحبه ، فانه يتعين عليها أن تعتنق اليهودية . كما يجب أن تعتنق أمها أيضا الديانة اليهودية بشكل رسمى أمام حاخامات اسرائيل .

* * *

يمكننا أن نقدم العديد من الأمثلة على السيطرة الدينية على كل التصرفات اليومية فى الحياة . فالطلاق دينى ، شأنه شأن الزواج . وقد عرفنا من قبل أن الجندى الشاب يقع فورا تحت السـيطرة الصارمة للحاخامات . وفى حالة التقاضى ، يكون من حق الطـرفين المتنازعين المنتمين الى نفس الطائفة الدينية أن يتقاضيا أمام محكمة الطائفة بالتراضى بينهما ، بدلا من اللجوء الى القضاء المدنى . وتطبق التعليمات الغذائية ، وقيود يوم السـبت بحذافيرها فى القـوات المسلحة . على أن الالتزامات التى يفرضها احترام طقوس يوم السبت تصطدم بقوة بضرورات الحياة الحديثة حتى ان الأمر استدعى البحث عن بعض الاجتهادات . فمن المحرم مبدئيا استخدام وسائل المواصلات أثناء فترة محدودة من يوم السبت . ولذا لا توجـد اتوبيسـات فى هذا اليوم بتل أبيب ، ولكن التاكسيات الجماعية تنشط (وأسعارها أغلى بالطبع) أما فى حيفا (وأغلب سكانها من

العمال) فتستمر الأتوبيسات فى دورانها . وتهتـــم السلطات الدينية أساسا باغلاق المقاهى والمطاعم ودور السينما والمسارح. الخ . ولكن هناك استثناءات فى هذا المجال أيضا . كان فى امكانى مثلا أن أتناول الشاى أو القهوة بشكل عادى فى الفندق الذى أقيم فيه . على أن غلى الماء للحصول على بيضة مسلوقة يعتبر ضربا من الكفر .

***

والهدف النهائى من كل هذه القيود ليس احترام تعاليم الدين فى حد ذاتها ، والا لما لجئوا الى الاجتهادات ، بقـــدر ما هو تذكير المواطنين الاسرائيليين دائما وفى كل مكان أنهم ينتمون الى اليهودية. ويتم ذلك منذ دخول المدرسة .

فاذا انتهى الى جيل من الشباب وصل الى الوعى الانســـانى والسياسى وهو مواجه بالفظائع الفاشستية . وانى لأذكر الأطفال اليهود الذين كانوا يساقون بالجملة فى عربات النقل ليرسلوا الى معسكرات الابادة ، وهم أبرياء ، رقيقون ومحرومون من أى امكانية دفاع عن النفس .. ولكن مما يثير الألم حقا انه بدلا من أن تثبت فى أذهان الأطفال الاسرائيليين الروح الانسانية والعالمية ، وبدلا من أن يوجهوا نحو التقـــدم ، فانهم يؤسرون فى حدود التعليم المغلق الذى يبعدهم تماما عن مواجهة الحقائق .

لقد تكلمت مع بعض المدرسين ، واطلعت على الكتب وبرامج الدراسة والموضـــوعات التى تطلب الوزارة منهم أن يطرقوها مع تلاميذهم . فدراســـة التوراة اجبارية لست ساعات فى الأسبوع بالنسبة لتلاميذ السنة الثامنة ، أى الذين يتراوح سنهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة مقابل أربع ساعات للرياضيات وأربع ساعات للغة العبرية . ويلتزم مدرسوهم بتقديم عرض أسبوعى يستغرق

ساعة كاملة حول الموضوعات التالية : « الحركة الصهيونية منذ سبعين عاما » ، الروح اليهودية وحرب الأيام الستة والنصر ، تاريخ القدس ، المدينة اليهودية منذ ثلاثة آلاف سنة •

وقد قالت لى احدى المربيات بتل أبيب نحن مكلفون بالتحدث عن حرب الأيام الستة فى حصص اللغة العبرية : كما « ينصحوننا » بتأكيد مسؤلية البلاد العربية الكاملة عما حدث ، وتأكيد عدالة قضيتنا • أما دروس التاريخ ، فتظهر أن سيرتنا فى نصاعة الثلج • وهناك فصول كاملة عن « الفظائع » التى ارتكبها العرب ، أما مذبحة دير يس فلا يرد ذكرها شأنها شأن كل أعمال الاغتصاب والجور الاسرائيلية •

ودير يس ، اذا لم تكن قد خانتنا الذاكرة ، هى القرية العربية الكائنة غرب القدس والتى هاجمتها قوات الايرجون (١) اليهودية فى السادس من أبريل عام ١٩٤٨ ، حيث أبادت ٢٥٠ من الرجال والنساء والأطفال • وكان لهذا الحدث دوى هائل حتى أن جون كيميش الكاتب والصحفى الاسرائيلى قال عنه انه « أكبر وصمة فى التاريخ اليهودى » •

* * *

ومن جهة أخرى ، يتعلم التلميذ الاسرائيلى أن « الانصهار » هو أكبر خطر يتهدد الجاليات اليهودية فى أى مكان فى العالم • ويصورون له كل الذين « تنكروا لدينهم ، وتقبلوا ديانة لوثر أو الكاثوليك » ومنهم المثقفون بالأخص ، على أنهم خونة • ولا تقل أحكامهم عن ذلك فى قسوتها بالنسبة لليهود الذين انضموا فى

منظمة ارهابية معادية للعرب كان يتولى زعامتها مناحم بيجين الوزير فى حكومة اسرائيل •

الماضى للحركات الأرشيدية الكبيرة وساروا على نهج فولتير والموسوعيين (الانسيكلوبيديين) • وباختصار فانهم ينظرون بعين الشك والريبة لكل ما من شأنه المساهمة فى اخراج اليهود فى أى مكان من عزلتهم •

واذا كانت الوطنية أمر يدعو الى التقدير والاحترام ، فان هذا الانطواء المطلق والمتفانى فى ذاته يشكل خطرا • وانى لأستطيع أن أقدر تماما ثورة تلك الأم التى تسمع ابنها وهو يقول بكل جدية اثر عودته من روضة الأطفال : « سآكل طعامى بالكامل حتى أصبح جنديا طيبا وأحارب العرب » وبالتقصى فى الأمر اتضح أن المربية هى التى لقنت الأطفال هذه المفاهيم المثيرة • ولكن يجب أن أقول أيضا أن نفس هذا الطفل المنتمى الى أسرة تكره العقلية العسكرية عاد فى يوم آخر ليقول وهو فى حيرة شديدة : « المدرسة تقول لنا اننا يجب أن نحب موشى ديان ، ولكن بابا لا يحبه ••• »

واذا كانت الدراسة العادية تتضمن برامجها عدة ساعات لتلقين النصوص الدينية ، فهناك الى جانب ذلك مدارس دينية بحتة تمولها الدولة لأن هناك « علاقة خاصة بين الدين والدولة فى اسرائيل » على حد تعبير أحد المطبوعات الرسمية • ويقول نفس المطبوع : « والواقع أنه لا يوجد أحد لايعتبر أن التربية ليست مسألة مبدئية ضرورية لتقرير الطابع الروحانى للأجيال القادمة • وفى هذا المجال فان الدين يعتبر عاملا أساسيا • وكان على الدولة أن تلبى الاحتياجات الدينية والدنيوية للمجتمع ••• » ومنذ عام ١٩٥٧ تقرر تدريس « الوعى اليهودى » فى كل مدرسة تتبع الدولة •

وهكذا يتضح تماما طابع التعليم حتى غدا الخلط بين الدين والدولة مسألة مبدأ ، مما يدمغ المواطن الاسرائيلى بالطابع اللاهوتى الضيق الأفق ، الأمر الذى يثير حتما دواعى القلق •

٤- منبوذون في أرضهم

* * *

لا تقتصر مشكلة اسرائيـل فى علاقاتها بالعـالم العربى على النطاق الخارجى فقط ، لأن المشكلة قائمة داخل حدودها أيضا • فبالرغم من اتساع عملية الهجرة ، فان هناك حوالى ثلاثمائة ألف عربى يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى ، ويشكلون أكثر من ١٠٪ من مجمـوع السـكان •• وقد كثر الكلام ، وتردد مرارا عن مأسـاة اللاجئين • وهذا صحيح ، ولكن الكلام لن يكون كافيا ما لم يرفع عنهم الظلم الأساسى الواقع عليهم • ومن الواضح تماما أنه لن يتأتى الحل الدائم للنزاع ما لم تسو قضيتهم •

على أن المعلومات المتوفرة قليلة عن هؤلاء الفلسطينيين المنتمين أصلا الى هذه البلاد منذ آلاف السنوات ، والذين لم تطاوعهم نفوسهم على ترك الأرض التى نشئوا فيها • انهم هنا ، لا يزالون فى أماكنهم، ولا يمكن اجتثاث جذورهم حتى اذا لم يعودوا يملكون الأراضى التى زرعها من قبل أجدادهم أجداد أجدادهم •

وقد قابلت الكثيرين من هؤلاء العرب فى اسرائيل • وسأتكلم فيما بعد عن الرجال والنساء الذين يعيشون فى الأراضى المحتلة • أما الآن فأريد أن أتعرض لما رأيت داخل اسرائيل نفسها •

***

ها هو ذا طاهر ، المقيم فى يافا ، بالحى العـربى بمدينـة تل أبيب • انه قابع على أرض مسكنه العارى تماما • وهو عبارة عن غرفة واحدة تكملها سقيفة بها موقد غاز • والغرفة خالية من الأثاث اللهم الا الأسرة وحشية كبيرة وحشيتان صغيرتان ومهـد

يتأرجح . ولا يوجد فى الغرفة دولاب أو منضدة بل مجرد حقيبة منزوية فى ركن وبعض السلال الموثقة .

وقد جاء أحد أبنائه بمقعد شواطىء من عند الجيران . أما الصديق الذى رافقنى فقد جلس القرفصاء على الأرض على نحو ما فعل مضيفنا .

وقامت الزوجة تعد لنا القهوة تحت السقيفة . فمقتضيات الضيافة شيء مقدس مهما تفاقمت درجة الفقر . والزوجة شابة، كان من الممكن أن تكون جميلة لولا الارهاق الشديد الذى تعانيه كانت تحمل طفلا بين ساعديها وتنتظر آخر فى طريقه الى الحياة. وراح يراقبنا خلف ظهر الأب المطمئن ثلاثة أطفال فى غاية الجمال والهدوء . كان أكبرهم لا يتعدى السابعة من عمره .

وعلى جدران الغرفة ألصقت صور منزوعة من مجلات مصورة وزهور من ورق وبجانبها صورة فوتغرافية كبيرة فاخرة على ورق مصقول تبدو غريبة على المكان . كانت الصورة لطفلة فى الثالثة أو الرابعة ، رائعة الجمال ومتزينة بالحلى ، جديرة بأن تنشر فى مجلة متخصصة في مبتكرات أزياء الأطفال .

وتكلم طاهر . كان يحكى لنا قصة حياته ونحن نرتشف القهوة المرة اللذيذة الممزوجة بحبوب لها طعم غريب . لقد استولوا على الأرض فى عام ١٩٤٨ وحل الفقر بالقرية ولكنه تزوج بالرغم من ذلك وانتقل الى حيفا سعيا وراء العمل . وقد اشتغل كعامل فى البناء . كان الأجر زهيدا ، ولكنه أجر على أى حال ، وسارت الأمور الى حد ما لفترة من الزمن . كانت أعمال البناء مزدهرة فى تل أبيب ، تمهيدا لاستقبال المهاجرين الوافدين من الجزائر . ولكن يهود الجزائر رحلوا الى فرنسا ، لا الى اسرائيل. وبصفة عامة فان الهجرة تتراجع . وقد اقتضى الأمر ايقاف

العمل فى بعض مواقع الميناء . ويعتبر طاهر نفسه محظوظا اذا اشتغل عشرة أيام فى الشهر . وهو قلق على المستقبل ، خاصة وأنه ينتظر طفله السادس القادم فى الطريق ..

ونظرت حولى . لم يكن هناك خمسة أطفال ، وادرك هو السؤال الذى تبادر الى ذهنى دون أن أتفوه به ، فأشار الى الصورة المعلقة على الحائط وراح يشرح لى . انها صورة ابنته ولكنها لا تعيش معهم . كانت رائعة الجمال بشكل مدهش منذ مولدها حتى أن سيدة يهودية من اسرة ثرية وقعت فى حبها للوهلة الأولى . كانت السيدة عاقرا فعرضت عليهم أن تتبناها . لم يقبلوا فى بادىء الأمر ، ولكنهم فكروا فى فقرهم المدقع وفى استحالة افلاتهم من الأوضاع التى يعيشون فيها . فلتنعم اذن بالسعادة هذه الطفلة الصغيرة على الأقل . واستقر رأيهم على قبول العرض .

— كانوا يحضرونها لنا بشكل منتظم في البداية . ولكنهم كفوا عن ذلك منذ سنة . انها لم تعد تتكلم العربية .. أنا أعرف بالطبع أنه ما كان يجب أن نتصرف على هذا النحو .. ولكن الأوضاع كانت قاسية ..

وكانت الطفلة الصغيرة المعلقة على الجدار الأبيض تبتسم فى الفراغ . ونظرت الأم الى الصورة التى تبهرها وتعذبها . كانت دموعها المنسابة فى صمت أول دموع شهدتها فى هذا البلد ، ولكنها لن تكون الأخيرة .

***

مرة أخرى فى مدينة يافا . فى هذه المرة توجد خمسة أسرة من المعدن فى غرفة عارية . وتتوسط الغرفة منضدة . وهذا كل ما هناك . ولا تتوفر المياه للرجال الخمسة المقيمين فى هذه الغرفة أو أى امكانيات لطهو الطعام . لقد نزحوا هم أيضا من التربة بعد

تجريدهم من أراضيهم . وكانوا عاطلين . وهم لا يجدون عملا ثلاثة أرباع الوقت شأنهم شأن طاهر ويأكلون فى أى مكان وأى شىء يستطيعون الحصول عليه . واذا تقاضوا أجرا ، فانهم يرسلونه بالكامل تقريبا الى ذويهم الذين يفتقدون كل شىء . ويعتبر ايجار مسكنهم المتهالك عبئا على كاهلهم بالرغم من توزيع قيمته عليهم .

— لماذا لا تعودون الى قراكم لتكونوا بين ذويكم ؟ ستكون الأحوال أيسر .

— قرانا ؟ وماذا نفعل فى قرانا دون أرض نفلحها ؟

وقد انضموا منذ سنتين الى النقابة . ففى عام ١٩٦٥ قرر « الهستدروت » وهو الاتحاد العام الوحيد للنقابات فى اسرائيل، وصاحب النفوذ الكبير ، ان يغير اسمه من « الاتحاد العام للعاملين اليهود » الى « الاتحاد العام للعاملين فى اسرائيل » .

وكان هذا التغيير مكسبا عماليا ، ولكنه ظل مجرد اجراء شكلى .

فهناك منشآت كثيرة لا تقبل تشغيل العرب بأى حال من الأحوال ، فضلا عن أن العمال العرب لا تواتيهم أبدا فرصة الحصول على التدريب المهنى الذى يؤهلهم لأداء الأعمال الفنية حقا . ومن جهة أخرى ، فانهم مستبعدون بشكل حاسم من كل ما يمس الدفاع الوطنى من قريب أو بعيد ، فلا يبقى أمامهم الشىء الكثير في دولة يغلب عليها الطابع العسكرى .

— والخارج ؟ ألم تفكروا فى الذهاب الى مكان آخر ، فى البلاد التى تحتاج الى أيد عاملة وتستطيع أن تستقبلكم ؟ ..

فنظروا الى واومئوا برءوسهم : أى مكان آخر ؟ انهم لا يريدون أن يعيشوا الا فى بلدهم ، فلسطين •

ـ لأننا على الأقل هنا لسنا بعيدين عن الأرض ••

***

أما فى تمرة ، فقد دار حديثى مع النساء .

وتمرة قرية معزولة من قرى الجليل فى شمال شرق حيفا • ويعتبر الجليل أكبر مركز لتجمع السكان العرب ، ويفوق فى ذلك مناطق تل أبيب والقدس والنقب . وتقع هـذه القرية الكثيرة المنخفضات والمرتفعات على نهاية طـريق لا يؤدى الى أى مكان آخر سوى المنازل المبعثرة على سفوح التلال • وتوجد حياتان داخل تمرة ، تختلفان عن بعضهما البعض حتى أنهما لا تتسقان معا . فهناك من ناحية قرية الفلاحين المنتمين أصلا لتمرة من أب لجد منذ قرون عديدة ، ومن ناحية أخـرى قرية اللاجئين من القرى المجاورة الذين انتزعت منهم أراضيهم بلا مقابل باسـم « خطة التجهيز » • فأقاموا هنا على مسافة كيلو مترات قليلة من مساكنهم القديمة .

كنت قد وصلت الى القاهرة حيث أمضيت الليل وكانت تصحبنى صديقتان احداهما عربية والأخرى يهودية . كانت سارة اليهودية قد جاءت من ليتوانيا منذ حوالى ثلاثين عاما وراحت تقص على أسطورة بحيرة الطبرية التى كنا قد عزمنا على زيارتهـا فى اليوم التالى •

ـ انهم يسمونها هنا بحر « كيزيت » ، ومعناها بالعبرية « القيثارة » لأن البحيرة تتخذ فعلا شكل القيثارة • وهى تحت مستوى البحر شأنها شأن البحر الميت • وتقول الأسطورة العبرية

انه بعد هلاك سدوم وعمورية زاد الملح فى البحر الميت ، فتوسلت الأسماك « ليهوه » حتى لا تحل نهاية العالم . وقد اسـتجاب « يهوه » وحد من ملوحة بحيرة طبرية ونقل الأسماك اليهـا .. وهكذا تنتقل الأسماك بسـهولة أكبر من البشر خصوصا فى الأساطير ..

كنا نتكلم بالانجليزية ، نحن الثـلاث ، وقالت سارة فى ملاحظة عابرة وقد قطبت جبينها «انها من مخلفات عهد الوصاية» كنا قد رحلنا فى ساعة مبكرة من النهار ، لأنه كان يتعين علينا أن نسرع حتى نصل الى الناصرة قبل حلول الليل . وسأقول لكم بعد قليل سبب هذا التعجل .

* * *

لا توجد كهرباء فى قرية تمرة ، وهى تشارك فى وضعها هذا قرى عربية كثيرة وتعيش فى حالة من الفقر أقرب الى البؤس . على أن ذكرى هذه القرية راسخة فى ذهنى من خلال وجهين : وجه امرأة ووجه فتاة ، كلاهما منقوش نقشا دقيقا على خلفية من الشقاء والكد . كانتا مليحتين ، وجمالهما من النوع الفلسطينى المتميز بلطف الأسارير وحزمها ونبل القوام . على أنى الاحظ أنى كتبت عنهما فى مذكراتى : « الشابات الحزينات » .

كانت أكبرهما فى العشرين من عمرها ، وهى لاجئة من قرية مجاورة . وأنقل لكم هنا حرفيا ما جاء على لسانها فى حديثهـا معى :

ــ كنت فى الثامنة من عمرى عندما اضطررنا الى الرحيل . وأنا أذكر كل شىء . المكان الذى كنت ألعب فيه والمكان الذى كنت أجمع منه الزهور والخضروات . كانت قريتى تسمى « دامون » وهى تبعد عن مكاننا هذا نصف ساعة سيرا على الأقدام . كنت

أحلم دائما بالعودة اليها ، ولكن العودة محظورة ، وفى يوم من الأيام لم أقو على الانتظار . ففى ١٥ مايو ، يوم الاستقلال يرفع الحظر على التنقل فى جميع أنحاء اسرائيل . ولذا قلت لصديقاتى : « لنذهب هناك ولو مرة واحدة ، فلن يقولوا لنا شيئا .. » .

« سرنا فى طريقنا ، ونحن نغنى ، وحملنا معنا مئونتنا لنتناول وجبة الغداء هناك . كنت أذكر أنه يوجد ما يشبه البئر بجوار منزلنا وأننا كنا نتناول عادة طعامنا هناك مع أهلنا . كنت فى غاية المرح ، ولكنى استرسلت فى البكاء عندما شاهدت المكان وكل الموجودين هناك الآن . كانت صديقاتى حزينات أيضا . وجلسنا لنأكل ولكن لم يكن لأى شىء طعم .

« ثم جاء شرطى وسألنا عن سبب تواجدنا في هذا المكان فقلت له « كان المنزل منزلى فيما مضى وكنت ألعب هنا ، وهو مكان مقدس بالنسبة لى » فصرخ فى وجهى » ارحلى من هنا ، هذا المكان محرم عليك » . قلت له اننا فى يوم الاستقلال ولكنه سخر منى وطردنا دون أن يسمح لنا بمواصلة الأكل . كنا نريد أن نشاهد المكان وأن نستعيد الذكريات . وعدنا الى تمرة وبكينا طوال الطريق .

ماذا أقول لها : ان منزلها جزء من الأراضى التى استولت عليها اسرائيل . وقد سمعت العديد من القصص المشابهة بتفاصيل لا تكاد تختلف ، وتكررت أمامى فى مختلف المناطق العربية التى زرتها ، بما يؤكد مدى الاستغلال الفاضح للحقوق التى منحتها الأمم المتحدة لاسرائيل . فعندما تتواجد جاليتان على أرض واحدة لا يمكن أن تستقر الأوضاع ما دامت أحداهما تفرض نفسها بالقوة على الأخرى . ومن الجنون أن تؤمن بذلك ومن الجنون أيضا أن تبنى سياسة وطريقة حياة على هذا الأساس .

وأنا أقول واكرر مرة أخرى أن الدول العربية ليست معصومة من الأخطاء ، فقد ارتكب قادة هذه الدول أخطاء فاحشة فى عام١٩٤٨ واغلب هؤلاء القادة لم يعد لهم وجود . ولكن هذه الأخطاء لا تبرر سياسة السلب والنهب التى تنتهجها الدولة العبرية بكل وقاحة ازاء عرب فلسطين .

أما الوجه الآخر فكان لفتاة في السادسة عشرة من عمرها . وقضيتها مختصرة وقاتمة . فهى احدى أفراد عائلة مكونة من ثمانية ابناء . قان الأب مريضا لا يكاد يقوى على العمل . وراحت الأم تكد . والمدارس تحتاج لنقود ، والكتب والكراريس لها ثمن . وكانت الفتاة ، وهى أكبر اخوتها ، ذكية ، موهوبة ومتحمسة لدراسة اللغة الانجليزية والعلوم وكانت تريد أن تواصل تعليمها لتصبح طبيبة . كان أبواها موافقين ، ولكن من يتكفل بمصاريف الدراسة ؟ كان لابد أن تكسب بعض القروش بأسرع ما يمكن لتربية أشقائها وشقيقاتها الأصغر منها . ولذا فهى تقوم ببعض أعمال الحياكة والتفصيل . ولكنها تكره هذا العمل ، وتمضى السنوات فتنسى ما تعلمته شيئا فشيئا بالرغم من الجهود التى تبذلها . وهى لا تجد اى مخرج من هذا الوضع ، ولذا فهى تعانى فى الواقع يأسا صامتا .

ألم تحصلى على منحة بوصفك أفضل طالبة فى فصلك ؟

ولكنها ابتسمت فى مرارة دون أن تجيب على سؤالى .

وقالت لى سارة بصوت ينضح بالغضب : « كان يمكنها أن تحصل على منحة لو لم تكن عربية فقيرة من قرية تمرة » .

***

يمكننى أن أصطحبكم معى فى هذا المعرض الملىء بالصور

الشخصية ، فقد شاهدت بنفسى العشرات منها وكلها من نفس الطراز . وتبقى الأضواء هى ذاتها حتى اذا اختلف المنظر . لا شك أن كل عرب اسرئيل لا يعيشون جميعا فى نفس المستوى . ففى مثل هذه الظروف توجد دائما فئة تنتمى عادة الى الطبقات المحظوظة ترى أن مسايرة الحكم القائم من مصلحتها . ولا شك أن هذه الفئة تحصل على مكاسب مادية أكيدة كمكافاة لها على خضوعها السافر أو الضمنى . وأذكر بهذا الصدد أحد هؤلاء الأفراد ، وهو نائب فى البرلمان وممثل لأحد الأحزاب الحكومية. وقد قابلته فى الكنيسست ، فراح يشرح لى :

ـ العلاقات العربية اليهودية في اسرائيل أشبه بالعلاقات القائمة فى الحياة الزوجية . فلا بد أن يتولى زمام الأمر أحد الطرفين .. ومن الطبيعى فى اسرائيل أن يضطلع اليهود بهذه المهمة .

وقد عجبت لهذا المفهوم « العائلى » للدولة . على أن المثقفين العرب يتمثلون أمامى فى شخص ذلك الطبيب الشاب المقيم فى حيفا ، والذى لا يواجه أى مشكلة مالية على عكس غالبية أخوته فى الوطن . كان هذا الطبيب لا يطيق العنصرية التى يعانى منها .

وقد حكى لى تجربته الشخصية طوال سهرة بأكملها . فقد أدت التفرقة الى تعطيل دخوله الجامعة التى لا تقبل الا عددا محدودا من العرب كل سنة . وكان يعانى من العزلة لا من جانب مدرسيه (وهو سعيد بالاعتراف بذلك) ولكن من جانب الطلبة . وقد واجه مصاعب كبيرة فى الحصول على مسكن لا يبعد عن الجامعة . ولم يحدث أبدا أن دعاه أحد زملائه اليهود لزيارته فى بيته ، وكان محكوما عليه بالانطواء المخيف على نفسه . وعندما حصل على المؤهل بدأت عمليات الاذلال الصغيرة داخل المستشفى.

وهو يضغط على نفسه حتى لا يثور عندما يتذكر أسوأ اهانة اصابته فى صميم كرامته كانسان وطبيب .

انتشر وباء فى المستشفى الذى يعمل به وكان لابد من اجلاء المرضى حالا على طائرات هليكوبتر . وكانت حالتهم تستدعى وجود طبيب مرافق لهم . وقد عينه رئيس الأطباء لهذه المهمة فاستعد لركوب الهليكوبتر . ولكن الطيار اعترض اذ أنه غير مصرح لعربى بأن يستقل طائرة عسكرية . وأضاف الطيار « من يدرى ، ربما أعطاهم أى حقنة تودى بحياتهم » . ولما كان لا يتوافر اى طبيب آخر ، فقد رحل المرضى وحدهم . واحتفظ الدكتور برباطة جأشه ولكنه تخلى نهائيا عن كل أوهامه كمفكر ليبرالى متسامح .

وتذكرت وأنا أستمع اليه الحديث الذى أدلى به الرئيس الجديد لاتحاد طلبة القدس . كان الحديث فى أجتماع عام . وقد وجه له سؤال حول المشكلة التى يواجهها الطلبة العرب فى الاقامة بالمدينة اليهودية حيث تقع الجامعة ، وما هى الاجراءات التى سيتخذها لعلاج هذا الوضع . فأجاب :

ــ لا توجد أى مشاكل . فقد تم غزونا للقدس بأسرها ، وما عليهم الا أن يسكنوا فى الأحياء العربية مع أقرانهم .

* * *

هناك استيلاء على الأراضى وحالة من الفقر الشديد فى القرى العربية التى تفتقر الى المدرس والمرافق الصحية والخدمات الطبية والكهرباء . وهناك مشكلة العمل والحرف والنقص الفظيع فى المعدات الثقافية والفقر العام الذى يبلغ حد البؤس فى اغلب الأحيان والتفرقة فى الدراسة والعمل . ولكن

هناك ضرب آخر من التفرقة يعانى منه عرب اسرائيل . كتبت من قبل ، بصدد زيارتى لقرية تمرة ، أنى كنت مضطرة الى العـــودة الى الناصرة فى نفس الليلة . لم تكن المشكلة تعنينى أنا أو سارة. ولكن صديقتنا العربية التى تقيم فى الناصرة والخاضعة للقانون العسكرى ، ما كان بوسعها أن تقضى الليلة خارج بلدها .

والقانون العسكرى من اقسى العقبات التى تعترض حرية المواطن العربى فى اسرائيل وحقه فى ممارسة الحياة اليوميـــة . وبصفة عامة تقسم المناطق المتاخمة للحدود والمناطق التى تعيش فيها نسبة كبيرة من العرب ، الى قطاعات تخضع للقيـــــــادة العسكرية التى تتمتع بحقوق دكتاتورية من الناحية العمليـــة . ويتعين على المواطن العربى أن يستخرج تصريحـــا من السـلطة العسكرية اذا اراد أن ينتقل من حيفا الى الناصرة أو من الناصرة الى طبرية . ويجب أن يقدم طلب التصريح كتابة وقبل موعده بيومين مع تحديد الأماكن التى يريد أن يتوجه اليها مقدم الطلب والطريق الذى سيسلكه والأماكن التى سيتوقف فيها . ولابد بالطبع من تقديم شرح مفصل لأسباب الانتقال . ويتعرض من ينتقل دون الحصول على هذا التصريح للقبض عليه والسجن . ولا يمكن الاعتراض على رفض منح التصريح الا فى حالات نادرة. ولا يسرى التصريح الا لعدد من الأيام كما لا يسمح أبدا بالمبيت خارج المنزل . ويخضع لهذا النظام أيضا عدد من العمـــــــال المناضلين ، ولكن التفرقة لها دورها هنا أيضا .

وعندما كنت فى الجليل تعرض المرافقون لى لملابسات شاذة بسبب هذه المضايقات السخيفة . كان لابد من حساب دقيق حتى تتمشى التصريحات مع بعضها . واستدعى الانتقـــال من طبرية الى كفر ناحوم من أجل غرض سياحى بحت اعدادا خاصا .

ويجب أن أعترف بأنى أعجبت بهدوئهم الشديد بينما كنت أغلى من الغضب . ومن بين الحجج التى ترددها الدعاية الاسرائيلية أن العرب يعيشون على أى حال فى اسرائيل فى ظروف أفضل من ظروفهم فى البلاد المجاورة . ويبدو أولا أن هذا التأكيد مبالغ فيه ذلك لأن المناطق المحتلة تعيش فى أوضاع اقرب الى القـــرون الوسطى وبالاضافة الى ذلك فإن هذا التأكيد يعالج باستخفاف القبضـــة الخانقة التى يفرضها الجيش المستخدم كجهاز بوليس يتمتع بامتيازات خاصة .

قالت لى سارة :

ـ لقد جئت الى فلسطين لكى أفلت من الاذلال وأنا سعيدة اليوم لكونى مواطنة اسرائيلية ولكنى لا أقبل اذلال الآخـــرين خصوصا اذا تم ذلك باسمى وبدعوى الحفاظ على أمنى .. هذا ظلم . ولن يكون مفيدا لأى شخص ..

لقد أصبت يا سارة ولكن ما أقل عدد الذين يفكرون على هذا النحو من بين أقرانك .

٥ - فى المناطق المحتلة

***

قطاع غزة وسيناء والقدس والضفة الغربية للأردن ومرتفعات جولان : هكذا أصبحت اسرائيل اليوم دولة تحتل أراضى تزيد عن مساحتها • ولقد تحولت قوات الهجوم ضد مصر وسوريا والأردن فى يونيو الماضى الى قوات احتلال بعد وقف اطلاق النار • ومن المعروف أن مجلس الأمن اتخذ بالاجماع فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ قرارا يطالبها بالعودة الى حدودها ، واجلاء كل قواتها عن الأراضى المحتلة • ومن المعروف أيضا أن حكومة اسرائيل لا تعمل حسابا لهذا القرار ، بل أعلنت رسميا أن القدس ستظل اسرائيلية على أى حال من الأحوال •

ألا يبدو هذا التحدى للأمم المتحدة عجيبا من جانب دولة يرجع الفضل فى وجودها الى هذه المنظمة الدولية ؟

أليس من مصلحة اسرائيل أكثر من أى دولة أخرى أن تؤكد ضرورة احترام قرارات الأمم المتحدة ؟ وماذا تنتظر اسرائيل من هذا الاحتلال ؟

لقد زرت المناطق المحتلة فى ديسمبر ، ولا شك أن الأوضاع زادت سوءا على ما كانت عليه فى ذلك الوقت حسب ما اتفقت عليه وكالات الأنباء المختلفة • كانت هذه الأوضاع تعانى أصلا من كل ما يفرزه الاحتلال والمطاردات البوليسية وأعمال القمع العمياء من سموم •

وكان فى امكانى أن أتصور الطريق الذى سيسلكه القادة الاسرائيليون ، والمشروعات الجارى تنفيذها الآن بعد اعدادها

بكل عناية ، والتى أصبحت واضحة تماما حتى أن عددا متزايدا من المراسلين الأجانب يعلقون عليها ، وكان لها صدى في عدد من الصحف الانجليزية مثل « الأوبزرفر » و « الجاردیان » و « الصنداى تايمز » .

قطاع غزة شريط يمتد بطول الشاطىء الرملى السهل . وعلى الحدود توجد نقطة حراسة عسكرية تقطع الطريق ، والمرور من غزة سهل اذا كان المرء قادما من اسرائيل ، أو هكذا كان الحال وقت زيارتى ، كانت الاجراءات تقتصر على مجرد التأكد من أوراق تحقيق الشخصية . أما في العودة ، فالتفتيش ادق اذ يفحص الجنود الأوراق بكل عناية ودقة ويفتشون السيارات . والهدف من ذلك هو مكافحة السوق السوداء ، ذلك أن اليهود المجاورين للقطاع يحصلون منه على لوازمهم لرخص اسعاره . بل أن الناس يفدون الى القطاع من مدينة أشدود الجديدة التى أقيمت عام ١٩٥٥ ومن المنتظر أن تصبح الميناء الثانى لاسرائيل بعد حيفا .. على أن تجارة المواد الغذائية سرعان ما تعدت حدود الاستهلاك العائلى المعقول الى حد استدعى تدخل الجيش . ولذا يتم تفتيش السيارات حتى تحولت نقطة المراقبة الى جمرك يحمل رجاله المدافع الرشاشة .

وعلى اليمين يمتد شاطىء البحر عن قرب خلف كثبان الرمال . وعلى اليسار توجد ثكنات مهجورة ، نصف خربة ،كانت المقر السابق لجنود الطوارىء التابعين للأمم المتحدة ، « ذوى الخوذات الزرقاء » . وكان هناك عدد من النساء القادمات من معسكر للاجئين يجتمعن حول حنفية ميـاه ، وقد حملن على رءوسهن صفائح « الجركن » المملوءة بالماء ، كما كان النساء يحملن فى الماضى البلاليص . ويوجد فى قطاع غزة أكبر عدد من اللاجئين بعد الأردن . ويقول تقرير لوكالة الغوث التابعة للأمم

المتحدة ، صدر فى يونيو ١٩٦٥ أن عددهـــم بلغ ٩٤٨ر٢٩٦ . ولا تعترف اسرائيل بهذا الرقم وتعتبره مبالغا فيه ، كما تعترض أيضا على العدد الاجمـــالى للاجئين الذى يقدره نفس المصـــــدر السابق(١) . وأسباب هذا الجدل واضحة ، فهو يرمى من جهة الى التهوين من شأن مأساة اللاجئين ، كى يهـدف من جهة أخرى الى تدبر أمور المســـتقبل والاحتمـاء بموقع أفضـــل اذا ما أجبرت حكومة اسرائيل على تنفيذ قرار الأمم المتحدة الصادر فى مايو١٩٤٨ والذى يخير اللاجئين بين العودة الى ديارهم أو الحصول على تعويض .

والى أن يتم ذلك ، يعيش اللاجئون منذ حوالى عشرين عاما فى معسكرات تعسة ويتلقون معونة لاتكاد تسد الرمق . وقد زادت حالتهم سوءا منذ حرب يونيو . فقد تركوا أراضيهم أمام اسرائيل فاذا بها تطاردهم مرة أخرى . ويتعرض اللاجئون لكل ضروب التعسف والاذلال ولا ينعمون بالأمان أو الاستقرار فى معسكراتهم البائسة المكونة من أكواخ من الصفيح .

ويكفى فى هذا الصدد أن أورد مثلا واحـــدا يفصح عن التصرفات التى تتم هنا بانتـــظام ، ففى ١٠ يناير المـاضى ، أتى الجيش على معسكر مقام على مســـافة عشرة كيلو مترات من مدينة غزة كما دمر أيضا مخيما مجاورا تعيش فيه جماعة من البدو .

أما المبرر فهو القاء ثمانى قنابل يدوية فى هذه المنطقة قبل ذلك بأسبوعين .. وقبل أن تهدم قوات الجيش هذا المعسكر ، حاصرته بالدبابات والسيارات نصف المجنزرة كما فرضت حظر

---

(١) لا يشمل هذا العدد سوى اللاجئين الذين يتسلمون معونة من وكالة الغوث . ويقدر نفس المصدر عدد الفلسطينيين الذين خرجوا من ديارهم بمليون و ٧٥٠ الف نسمة .

التجول . وتم استجواب ألفين وخمسمائة رجل تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخمسين لمدة ساعات ، ظلوا وقوفا وأيديهم مرفوعة فوق رءوسهم تحت تهديد المدافع الرشاشة . وقد القى القبض على أربعين من « المشتبه فى أمرهم » وتم ترحيلهم الى جهة غير معروفة .

***

وقد دار بينى وبين جندى اسرائيلى حديث طويل ، وهذا الجندى من أصل بلغارى وقد اشترك فى عملية تدمير من هذا النوع . وكان قد طلب مقابلتى . وأعتقد انه أقدم على ذلك لكى يبرىء ذمته ويتخلص من عبء هذه الذكريات المؤلمة .

وقد رفض أن يذهب الى الفندق الذى كنت أقيم فيه كما رفض أن يقابلنى فى مقهى خوفا من « الآذان الطويلة » على حد تعبيره . ولذا فقد تجولنا في شوارع تل أبيب لكى نبدو كعابرين غير مبالين ، يتجاذبان أطراف الحديث . ولكنه كان يكف عن الكلام فجأة كلما صادفنا أحد المارة . كانت الوحدة التى التحق بها قد احتلت منطقة غزة بالذات . قال لى :

ــ أعمال التفتيش فظيعة . كنا نقتحم المنازل فى وسط الليل . كان الجنون يصيب الناس ، وهم نصف عرايا ، وكانت النسوة تبكى والأطفال يرتعدون من الخوف . ويجبر كل رجل أو طفل يزيد سنه عن الرابعة عشرة على الاستلقاء وبطنه نحو الأرض ، والأيدى معقودة خلف مؤخرة الرأس . ويدوسهم الجنود بالأحذية ويضربونهم بكعوب البنادق . أما الطرق على الأبواب فلا يتم الا بقرعها بكعوب البنادق .

« واذا لم يفتح الباب خلال ثلاثين ثانية ، يصدر الأمر بالاقتحام . وعلى أية حال فان أعمال التفتيش مسألة روتينية

تتم كل ليلة • وقد لا يقع أحداث متميزة ولكن الأثر النفسى مؤكد حتى اذا لم يتم العثور على أى شىء •

« والتعليمات صارمة بالنسبة لدوريات الليـــل • يجب اطلاق النار بلا أى انذار سابق بمجرد ملاحظـــة أى شىء يثير الريبة . وتقض الأوامر بأن يكون اطلاق النار « فى المليان » •

« وقد توليت الحراسة أيضا فى المحاكم العسكرية . كانوا يحاكمون أولادا خرقوا تعليمات حظر التجول . كان من بينهم من يتراوح سنه بين الرابعة عشرة والثانية عشرة . وأذكر منهم واحدا انهالوا عليه بالضرب المبرح حتى أنه كان لا يقوى على السير . وهناك آخر ، رشقوا خصيتيه بالدبابيس • وعندما حكى ما حدث له للقضاة ، استرسلوا فى الضحك .

« كانوا يريدون أن نقوم بدور المرشدين . وأنا لحسن حظى لا أتكلم العربية . أما الآخرون الذين يعرفون اللغة العربية ، وتتفق ملامحهم مع ملامح العرب ، فكان الضباط يطالبونهـــم بارتداء الملابس المدنية والتسكع فى الشوارع لاستراق السمع . وكانوا ينصحونهم بالتفوه بكلمات استفزازية معادية لاسرائيل لتتكشـف لهم انفعالات المارة • أما الذين يرفضون هذا العمـل فيتهمون بالتخلى عن وطنيتهم ، كما يواجهون العديد من المتاعب •

« وعندما وصلنا الى غزة ، قالوا لنا انه لا داعى لمحاولة اقامة علاقات طيبة مع الأهالى ، لأنهم يكرهوننا ، وأن المطلوب منا هو بث الخوف فى نفوسهم • وقالوا لنا : « انهم لن يحركوا ساكنا اذا أدركوا أننا لن نرحمهم » •

« وكل ما أرويه عليك صحيح ، لقد رأيته بعينى وشاركت فيه بنفسى ، وسأظل أخجل مما فعلت طوال حياتى » •

هذه شهادة من جانب المحتلين ، واليكم شهادة من جانب الذين يعانون من الاحتلال ٠

يعيش م ٠٠ فى رام الله بالقرب من القدس ٠ والواقع أنه لجأ اليها مع عائلته منذ قيام الحرب ٠ وهو قادم من قرية « عمواس » المجاورة لمدينة القدس ٠ أما أسرته فتتكون من والده (وهو أستاذ سابق فى جامعة عمـان ، بلغ سن التقـاعد) ومن زوجته وأبنـائه وأشقائه وشقيقاته ٠ وقد فقدوا كل شيء ، ولا يوجد أى أثاث فى الغرفة التى استقبلونى فيها ، عدا عـدد من الحشايا المفروشة على الأرض ، ومصباح كهربائى عادى يتدلى من السقف ، وتكلم م ٠٠٠ :

ـ « لم نكن نتوقع نشوب الحرب ، كنا نتصور أن الأمر لن يتعدى حدود الاثارة ، وأن كل شيء سيسوى بدون قتال ٠ وقعت الحرب فوق رءوسنا كالصاعقة ، وقد التجأنا فى ليلة ٦ يونيو الى كنيسـة البرج بالقرية ، وفى الفجر ، دخل القـائد الاسرائيلى فى الكنيسة فرآنا ، وطلب منا مغادرتها فانتهى كل شيء ، أردنا أن نعود الى منازلنا ، ولكنه رفض وأخبرنا أننا يجب أن نذهب الى رام الله حيث سيتم تجميعنا ٠

وطلبنا ان يصرح لنا بأن نأخذ ملابس لنا وبالأخص لأطفالنا ، ولكن الجنود رفضوا ٠ كنت أحمل طفلى الكبيرين وسنهما خمس سنوات و ثلاث سنوات ، وكانت زوجتى تحمل وليدنا وعمره ثلاثة أشهر ٠ وكانت تعانى قلقا شديدا لأن لبنها ليس طيبا ، ولا يستطيع الوليد أن يشربه ٠ كان لا بد من استخدام زجاجة رضاعة ولكنه كان محظورا علينا حمل أى شيء معنا ٠ وقد قلت ذلك للقائد ولكنه أجابنى بأنه ليس مرضعا وأن الأمر لا يعنيـه فى شيء ٠ وكنـا حفـاة وأنصاف عرايا ٠

« وسرنا فى الطريق وانضم الينا سكان قريتين أخريين وهما

بيت نوبه ويالو ، تحت حراسة الجنـــود • كنا لا نملك شيئا نأكله فاسترسل الأطفال في البكاء •

« وعندئذ قسمونا الى فريقين ، ووضعوني مع ثلاثة وعشرين شابا آخرين ، وقالوا لنا اننـــا أسرى حرب • وأشرت للقـائد نحو الأطفـــال وقلت انني لا أســتطيع أن أتركهم ، وانهم لا يمكنهم أن يسيروا بمفردهم ، فضحك أحد الجنود وصاح : « ما عليك الا أن تلقى بهم ، فتتخلص منهم •• » وقد عصـبوا أعيننـــا واستمعنا الى الآخرين وهم يرحلون ، وكان يقيننا أنهم سيطلقون النار علينا •

« وقد أخذوا مني دبلة الزواج وساعتى بل ومنديلي أيضا • وكانت عيوننا لا تزال معصوبة وراحوا يطلقون النار لارهابنا •• ودارت بعد ذلك مناقشة بين الجنود • كانوا لايعرفون كيف يتصرفون فينا • وكان واحد منهم يتميز بالشراسة ، يصر على قتلنا • ولكن الآخرين قالوا انه لا يمكن أن يتم الأمر على هذا النحو • وقد وضعونا في سيارة نقل دون أن يرفعوا العصابات عن عيوننا •

« وتوقفت بنا سيارة النقل عدة مرات قبل أن نصل الى الرملة غرب • اسرائيل • وكانوا يجبروننــــا في كل مـــرة على النزول ويضربوننا ، وأسوأ ما حدث لنـــا كان في مركز البوليس بالرملة فقد راحوا يستجوبوننا وعيوننا معصوبة ويضربوننا حتى فقـدان الوعي • كانوا يطالبوننا بأرقامنا متظاهرين بأنهم واثقون بأننا جنود في الجيش الأردني • وكلما كررت لهم أن ذلك غير صحيح ، تمادوا في ضربي • وقد طلب منهم فتى في الثامنة عشرة أن يشرب ، وقد خارت قواه وغطت الدماء وجهه • فأحضروا دورق ميـــاه وراحوا يسكبون الماء أمامه دون أن يسمحوا له بالشرب •

واستمر هذا الوضع يومين • لا آكل ولا شرب بل الضرب المتواصل • وكانوا يحبسوننا في الليل داخل غرفة صغيرة يغمرون

أرضها تماما بالماء ويجبروننا على الاستلقاء على بطوننا والنوم ..

« وأخيرا أمرونا بركوب سيارات النقل ، وساقونا الى أحد معسكرات الاعتقال بالقرب من حيفا . كان كل مائة وعشرين منا يعيشون في عنبر واحد بلا أى أثاث أو غطاء ، وبأقل قدر من ماء الشرب وبلا أى ترتيبات صحية ، وطعام لا يكاد يسد الرمق . كنت حافى القدمين . وقد أفرجوا عنى بعد شهرين دون أى تفسير لتصرفهم .

« وذهبت الى رام الله لأنضم لأسرتى وتقدمنا بطلب تصريح للعودة الى قريتى عمواس ، فقالوا لنا أن ذلك محال لأنها قرية ارهابيين وقد تم تدميرها . قلنا لهم اننا على استعداد للمعيشة فى خيمة حتى نعيد بناء مسكننا ولكنهم سخروا منا وقالوا لنا ان أرضنا لم تعد ملكا لنا ، وانه يتعين علينا الاقامة فى الرملة أو الانتقال الى الأردن ، الى الضفة الشرقية ، اذا أردنا ذلك .

« وقد بقينا هنا ، ونحن نعيش فى حالة من البؤس الشديد. ولكنهم لن يتمكنوا من ترحيلنا فنحن نعرف تماما أن هذه هى أمنيتهم .

« لم يعد لنا من أثاث منزلنا سوى سجاد . وقد تسرب به أخى الصغير سرا فى احدى الليالى بين الخرابات وكان يجازف بحياته ولكن هذا السجاد ليس فى نظرنا مجرد شىء عادى . انه رمز العودة » .

وقد اخترت حديث م .. من بين غيره من الأحاديث . وهناك روايات تفوق هذا الحديث فى فظاعتها ولكنى اخترت روايته بالذات لأنها نموذجية اذ لا تحوى أى شىء غير عادى . فكل ما حدث لهم .. يبدو عاديا للغاية فى اطار هذه الحرب .

ما أشد الاختلاف بين رام الله والقدس وبيت لحم ونابلس وغزه ٠٠ على انى أجد فى كل هذه المدن نفس النظرات الصامتة ونفس الاحساس بالحياة الدفينة التى تخفى مشاعر متلاطمة تحت سطح هادىء ٠ هناك شىء متأجج ، لا يهدأ ، فى هذه المدن المحتلة٠ وأيا كانت الاختلافات بين تلك المدن فان القاسم المشترك بينهـــا جميعا هو ذلك الزى العسكرى الاجنبى المنتشر فى شوارعها ٠

ان ما يلفت النظر فورا هو موقف « الرفض » من جانب الأهالى ولنضرب المثل بغزة ٠ تعانى هذه المنطقة ، أزمة اقتصادية خطيرة ، شأنها شأن كل المناطق المحتلة ٠ لقد استقرت فى العديد من المنازل حالة القلق اليومية من أجل مطالب الحياة المادية البسيطة ٠ ولـكن غزة لا تتعاون ككل المناطق الأخرى ٠ فالناس يتحملون هنا روتين المسائل الادارية ويعيشون بقدر ما يستطيعون ولكنهم « يرفضون » الوجود الاسرائيلى ٠ ويفرض هذا الوجود نفسه فى الوقت الراهن ، لأن الجيش الاسرائيلى أقوى منهم ٠ وتقوم أجهزته الخاصة بأعمـال التفتيش والقبض واصدار الأحكام والحبس وتحول الوشاية الى نظام معترف به وتنسف المنازل « المشـــتبه فى أمرها » بالديناميت ، وتحول كل جندى الى رجل شرطة ، وتلجأ الى « العقوبات » الجماعية، أى انها تمارس باختصار كل مقتضيات الاحتـــلال ! وقد رأيتهم يستوقفون سيارة فى الطريق المؤدى الى نابلس ، وقد أخرجوا كل الركاب ، رجالا ونساء وأطفالا ، وأيديهم مرفوعة الى أعلى ، وفتحوا كل السلال والمقاطف وبدءوا عملية التفتيش الفظة ٠ وتم كل ذلك تحت تهديد الرشاشات ٠

لقد تكلمت عن النظرات الشعبية فى المدن المحتلة ٠ ولـكن هناك أيضا نظرات المحتلين المتعجرفة والباردة ، وهى نفس نظرات المحتلين التى شهدناها فى بلاد أخرى وفى أزمنة أخرى ٠

ولكن ما هو رد الفعل ؟ اليكم مثلا : كنت فى حاجة الى الانتقال الى ضاحية بالقرب من غزة ، لا يسهل الوصول اليها • وقد أبدى أحد سكان المدينة استعداده لمرافقتى كدليل • ولما كانت المسافة طويلة الى حد ما فقد عرضت عليه أن يستقل السيارة التى جئت بها من تل أبيب • ولكنه رفض • وركبنا سيارته بالرغم من انهـا عربة موغلة فى القدم ، ربطت أبوابها بأسلاك ويتعطل محركها من آن لآخر • ولما سألته عن السبب أجابنى قائلا : « سيارتك تحمل أرقاما اسرائيلية • وأنا لا أريد أن يرانى الأهالى فى مثـــل هذه السيارة ، لأنهم سيتصورون أنى من المتعاونين مع المحتل •• »

واليكم رد فعل آخر • وقع فى بيت لحم بالضفة الغربيـــة للأردن • كانت هناك حوالى عشر سيارات للشرطة وسيارات نصف مجنزرة ودبابة خفيفة فى الميدان أمام كنيسة الميـــلاد • ولا تزال الرايات البيضاء ترفرف فوق أسطح بعض المنازل • وفى وســع أركان الحرب أن يكون راضيا عن الأوضاع فما زال ســكان هذه المنازل خائفين تماما كما كانوا أيام الحرب •• وفى ركن أحد الشوارع المتعرجة والصاعدة فى درجات ، يوجد دكان صغير يبيع كل الأصناف وفى وسط مجموعات الصور وأثواب القماش وبكرات الخيط التى تذكر المرء بمحلات البقالة فى الريف الفرنسى ، توجد شـــارات لامعة تبدو شاذة وسط ركام البضائع • وهى من النوع الذى يحاك على الجيوب أو أكمام القمصان • واذا نظر المرء اليها عن قرب ، اتضح له انها تحمل شعارات وأسماء مدن الأردن المحتلة : القدس أريحا ، نابلس ، وفى وسطها شعار الدولة الأردنية وعلمها الوطنى، حتى تتأكد فكرة انتماء هذه المدن للدولة الأردنية • وقال لى البائع: « أنا لا أحب « حسين » ، ولكن المسألة مسألة مبدأ •• »

وقد قبض على الرجل مرتين ، كما ضربوه وهددوه •

والاحتلال يعنى المقاومة • وقد اتخذت المقاومة اشكالا متعددة ابتدأ من التصرفات الفردية حتى الأعمال الجماهيرية • وقد نجح المعلمون فى القدس وفى الضفة الغربية فى التمسك بالكتب الأردنية فى المدارس بدلا من الكتب الاسرائيلية التى أرادوا أن يفرضوها ، وذلك بعد اضراب طويل • وتطبع الجرائد السرية وتوزع •• ويقدم الاسرائيليون أنفسهم الأدلة على مدى انتشار حركة المقاومة ونوعيتها بتوسعهم فى حركات القبض والاعتقال • وقوائم الشرطة الخاصة بالمطلوب القبض عليهم تضم أسماء أطباء وطلبة وشخصيات معروفة ومحترمة •

وتعلن البيانات الصاخبة ، بشكل منتظم ، انه قد تم « استئصال » المقاومة أو « القضاء » عليها فى القدس أو غزة أو غيرهما •• لكن المقاومة مستمرة ، بل تمتد وتزداد احكاما • وقد تحولت المقاومة الى مشكلة خطيرة تشغل اسرائيل بالرغم من جعجعة الجنرال ديان ، وزير الحرب ، الذى يحتاج الى اثارة الخوف فى نفوس مواطنيه والى أثبات أنه الرجل الوحيد القادر على ضمان أمنهم ،لكى يحقق أهدافه السياسية •

وقد قابلت عددا من قادة المقاومة فى غزة والأردن ، فرأيت رجالا هادئين وعمليين ، يتميزون بوضوح الرؤية • وهم لا تخالجهم أى أوهام حول التوسعات الاسرائيلية واقامة « كيبوتزات » عسكرية فى الضفة الغربية للأردن ، وسياسة الارهاب • والتدمير المستمرة فى غزة والضفة الغربية وعلى الحدود السورية • وتؤكد مخاوفهم خطابات ديان ومناحم بيجن وأمثالهما حول ضرورة ضم هذه المناطق• على أن كل من يتحمل مسئولية هنا ، أكد لى أنه لا يضمر أى عداء ضد اليهود بوصفهم يهودا ، وأنه لا يأخذ على اسرائيل يهوديتها بل صهيونيتها •

ويود هؤلاء الرجال بكل عمق أن تتم تسوية سلمية فى الشرق الأوسط • ولكن الشرط الأساسى الذى يطالبون به هو الجلاء عن المناطق المحتلة والاعتراف بحقوق المواطنين الفلسطينيين العرب •

ولكن سير الاحداث يؤكد للأسف أن اسرائيل غير مستعدة للتخلى عن أحلامها التوسعية • وعلى كل فان العرب حساسون بشدة لقيام الحكومة الاسرائيلية بحملة عالمية واسعة من أجل هجرة اليهود الى اسرائيل فى الوقت الذى تدفعهم تصرفات الجيش الى الهجرة ••

ويبدو أن قادة حكومة اسرائيل لا يريدون أن يكون السلوك العام لقوات الاحتلال محل فحص دقيق من جانب جهات لا يمكن التشكك فى جديتها • وكانت الرابطة الدولية لرجال القانون الديمقراطيين ، ومركزها الرئيسى فى بروكسل ، قد قررت ارسال لجنة لزيارة المناطق المحتلة • وأفادهم السيد ميكل مور ، القديس العام لوكالة الغوث الدولية ، أنه يضع نفسه تحت تصرف اللجنة لتسهيل مهمتها • ولكن التأشيرات التى منحت لأعضاء اللجنة سحبت فى اللحظة الأخيرة لمبررواه ، وهو أن اذاعة صوت العرب أعلنت عن هذه الرحلة « بشكل معاد لاسرائيل » •

الا يرجع هذا التصرف بالأحرى ، الى أن حكومة اسرائيل ستجد مشقة فى تبرير موقفها من الأهالى المدنيين فى المناطق المحتلة ، أمام شخصيات قانونية مرموقة ؟ •

٦ ـ الكيبوتز: هل هو أحد أشكال الاشتراكية؟

***

هناك كلمة سحرية محاطة بهالة من التبجيل فى نظر الكثيرين فى فرنسا وفى غيرها من البلاد فان كلمة « الكيبوتز » تذكر فورا كلما تطرق الكلام الى اسرائيل .

بل أن البعض يرى أن هذه الكلمة تكفى وحدها لانهاء أية مناقشة . واذا جازف المرء وأدان أمامهم سياسة الدولة الاسرائيلية، فانهم يردون عليك باجابة مفحمة وقاطعة : « قد يكون هذا صحيحا ! ولكن هناك على أى حال الكيبوتزات .. ! » .

وتفترض هذه الطريقة فى التفكير ، فكرتين مسبقتين :

أولهما أن الكيبوتزات نظام خاص تتميز به اسرائيل وحدها وثانيتهما انها مؤسسة نموذجية . ومن المفيد أن نواجه هذه التأكيدات بواقع الأمور .

هناك أولا بعض الأرقام التى تقدم مزيدا من الوضوح . فالوثائق الحكومية الرسمية تؤكد أن الكيبوتزات تمثل ثمانين ألف شخص أى حوالى ٣ر٥٪ من مجموع السكان ، وهى تضم ١٧٪ من الأهالى الزراعيين اليهود والعرب ، أو ٣٠٪ من نفس هؤلاء السكان اذا لم نأخذ فى اعتبارنا سوى اليهود .

ولا تضم الكيبوتزات أى مواطن عربى الى عضويتها . وعلى كل حال ، فمن الصعب أن نعتبر نظاما لا يشمل سوى ٤٪ من من مواطنى أية دولة نظاما حاسما بالنسبة لها .

على انهم سيقولون لك أن الكيبوتز شىء آخر . انه النموذج

الاسرائيلى للاشتراكية ، ورمز ارادة التجـــديد والخلق الأصيل ولا يمكننا أن نرد على ذلك الا بالتعمق عن قرب فى دور الكيبوتزات ومركزها فى تاريخ دولة اسرائيل ٠

* * *

أنشىء أول كيبوتز فى عام ١٩٠٩ على ضفاف بحيرة طبرية ٠ وقد سمى هذا الكيبوتز « دجانيـــا » (زهرة العنبر) واعتبر « الكيبوتز الأم » ٠ وكان رجال هـــذا الكيبوتز من المستوطنين العاملين فى مزرعة تتبع « الصندوق القومى اليهودى » الذين قرروا أن يتولوا بأنفسهم استغلال هذه المزرعة فى نظام جماعى صارم ٠ من غير المسموح به استخدام النقود داخل الجماعـــة ٠ وكلمـــة « كيبوتز » تعنى « الجماعة » بالعبرية ، وهى المسئولة عن الانتـــاج وعن كل الخدمات الجمـــاعية وعن توفير كل احتياجات الأفراد ٠ وكانت الملكية الخاصة ممنوعة ، وكذلك أيضا العمل الأخير ٠ وكان لا يسمح بأى تجارة فردية ، فكل عمليات البيع والشراء تتم عن طريق الجماعة ، وتستخدم كل الأرباح فى تطوير القرية ٠

من أين جاء مستوطنو « ديجانيا » ؟ من أوروبا الشرقيـــة ، وبالأخص من روسيا القيصرية التى كانوا يعانون فيها من أعمـــال الاضطهاد والسياسة الرجعية والوحشية للحكومة الامبراطورية ٠ وبالرغم من ميل هؤلاء المستوطنين الى الأفكار المشايعة للاشتراكية الا أنهم انجذبوا للصهيونية ومطالبها القوية المتصوفة ٠

وقد وقع خلفاؤهم والمواصلون لرسالتهم الذين استوحوا هذه الحركة وطوروها ، فى نفس التناقض ٠ فالصهيونية تنادى باقامة دولة تمتد الى الحدود التى وردت فى التوراة ، ولذا كان لابد أن تكون الصهيونية توسعية ٠ والتوسع يعنى فورا استخدام القوة

العسكرية • وفى هذا المجـــال بالذات ، قامت الكيبوتزات بدور أوسع من دورها الاجتماعى أو الاقتصادى •

فمن المعروف أن « الصندوق القومى اليهودى » كان يتبـــع سياسة الشراء المنتظم للأراضى فى فلسطين • وكانت هذه الأراضى لا تشترى من الذين يعملون فيها ويعيشون عليها منذ قرون عديدة ، ولكن من كبار الملاك العقاريين الذين يعتمدون فى أغلب الأحوال خارج البلاد ، ويفضلون الحصول على ملايين اضافية لانفاقها على موائد اللعب فى « نيس » أو مونت كارلو » ، على الحفاظ على عدد من الهكتارات فى « الجليل » أو « اليهودية » التى لم تطأها أقدامهم فى يوم من الأيام • ولا مجال هنا للخوض فى العلاقات اليهودية العربية ، ولكن قضية بيع وشراء الأراضى الفلسطينية من الأسباب العميقة للنزاع •

وقد أقيمت الكيبــوتزات فى هـــذه الأراضى • ولم تقتصر مهمتها على استغلال الأراضى بل الحفاظ عليهـــا أيضـــا • ويقول الشاعر الفرنسى فيرلين ، فى بيتين من الشعر أعشقهما بشـــكل خاص .

كان يكره المحراث والسيف

أى ما يسمى الجندى ــ الفلاح •

ولكن الكيبوتزات كانت لا تكره الجرارات أو البنادق ، بل على العكس ، فقد اعتبرت أن كلا منهما مكمل للآخر • وقد اعتمدت الهاجاناه على الكيبوتزات • والهاجاناه هى التنظيم العـــــسكرى اليهودى أثناء الوصاية البريطانية الذى تحول فيما بعد الى الجيش الاسرائيلى الحالى • وقد تكونت فرق الجيش الأساسية من هـــذه

الكيبوتزات تم تدريب أفراد الجيش فى اطارهـــا ، كمـــا حفظت عندها الأسلحة .

ويقول موشى يحديم ، فى كتاب صدر عن الكيبوتزات ضمن سلسلة رسمية تحمل اسم « اسرائيل اليوم » أن اعادة بناء اسرائيل جزء لا يتجزأ من حلم الكيبوتز » .

***

يجب أن يستمع المرء الى أعضاء الكيبوتزات القدامى ، وهم يروون ذكرياتهم ! انها ليست حكايات فلاحين بقدر ما هى قصص محاربين قدامى .. فالجانب العسكرى فى الكيبوتز ، ليس كما قد نتصور ، مجرد حدث تاريخى تخطاه الواقع الحالى . لا ، فالكيبوتز لا يزال ضربا من الاستيطان الاستراتيجى ، ولا ينطبق ذلك بشكل خاص على الكيبوتزات المتناثرة حول تل أبيب أو حيفا .. ولـكن الكيبوتزات القائمة على الحدود ، وبالأخص الكيبوتزات الممتدة على طول الحدود السورية والمتاخمة للبحر الأحمر ، فهى أقرب الى أن تكون فقط حراسة متقدمة من أن تكون مجرد مشروعات زراعية .

وهناك فيلق خـــاص فى الجيش الاسرائيلى – يســـمى « الناحال » (تتكرر هذه الكلمة من الحروف الأولى لكلمات عبرية معناها « الشـبيبة الرائدة المناضـــلة ») مكلف بدمج الخدمة العسكرية بحياة الكيبـــوتزات . فمن الممكن أن يؤدى المواطن الاسرائيلى الخدمة العسكرية فى « الناحال » تماما كما قد يؤديها فى سلاح « المظلات » أو « المدرعات » . ويقضى المجندون الجدد فترة التدريب فى الكيبوتزات للتعود على الحياة الزراعية بعد قضاء عدة شهور فى التدريب العسكرى . وعلى أثر انتهاء فترة التدريب ، يستمر المجند فى الخدمة العسكرية ويلحق بأحد المراكز الموزعة على

الحدود في المناطق الاستراتيجية · وتقام هذه الكيبوتزات ، كما تقول احدى نشرات الجيش الاسرائيلي بكل حياد : « في المناطق المعرضة للمخاطر أو التى تسهل اقامة المدنيين فيها » ·

والكيبوتزان اللذان اقيما أخيرا فى الضفة الغربية للأردن من صنع « الناحال » · وقد أجاب الجنرال ديان ، ردا على الاجتماعات التى ثارت داخل اسرائيل نفسها وفى الخارج ، فقال « حتى اذا اضطررنا الى الرحيل ، فسيكون هناك استيطان يهودى لا يقبل التراجع عنه » ·

والأغلبية الساحقة من قادة الجيش الاسرائيلى ، ومنهم بالأخص الجنرال بارليف ، ينتمون أصلا للكيبوتزات ، وكذلك أيضا وزراء الحكومة الحالية · وتتميز المدارس الابتدائية والثانوية فى الكيبوتزات بطابعها القومى والعسكرى المتطرف بشكل ملحوظ · وتحرص الكيبوتزات على التمسك بطابعها اليهودى الصرف ، ولذا يجب ألا ندهش عندما يتضح لنا أن هذه الكلمة لا ترمز فى الشرق الأوسط الى التعاون بل الى التغلغل ·

* * *

ولا تبقى بعد ذلك سوى الناحية الجماعية التى تحرص اسرائيل على ابرازها ·

لا شك أن الحياة داخل الكيبوتزات جماعية ، وان لم تكن على نفس الغرار فى كل الأماكن · وترتبط الكيبوتزات بالأحزاب السياسية فهناك كيبوتزات للماباى وللمابام ولأشدوت هافودا وللأحزاب الدينية · ولا يعيش أفراد الكيبوتزات على نفس الأسلوب ، كما أن مفهوماتهم تختلف من كيبوتزالى آخر · وأقرب الكيبوتزات الى المفهوم الأصلى لتأسيسها هى كيبوتزات المابام التى

تدعى أنها اشتراكية شأنها فى ذلك شأن حزب المابام نفسه • على أن الاشتراكية التى يقصدونها خيالية تماما •

فالواقع أنه لا يكفى لكى يكون الواقع اشتراكيا لمجرد الغاء النقود داخل الكيبوتز وتناول الطعام بشكل جماعي وتربية الأطفال فى دور الحضانة وانشاء مدرسة جماعية • ويقولون عـــادة فى اسرائيل أن الكيبوتزات « جزر اشتراكية صغيرة وســـــط عالم رأسمالى » • وهذا سخف أثبتت التجارب فشله بشكل قاطع •

وقد أصبحت الكيبوتزات مرتبطة اليوم بالنظام الرأســمالى من كافة الجوانب ، وغدت تابعة له بشكل وثيق • وكما كانت الدولة تدرك أهميتها كواجهة دعائية فانها تجزل فى معاونتها لها • ولكن المعونة لا تســـاعد الكيبوتزات على موازنة اقتصادياتهـــا فتظل « اشتراكيتها » شكلية ووهمية ما دامت غير قائمة على المســـتوى الانتــاجى •

وبصفة عامة يمكننا أن نلخص الواقع كما يلى : يحتاج الكيبوتز الى التصنيع حتى يستطيع أن يقف على قدميه • ولما كان الفارق كبيرا بين أسعار منتجات الصناعة وأسعار منتجات الزراعة ، فانه يتعين على الكيبوتز أن يبحث عن النقود من مصدر آخر غير موارده الذاتية ، وقد سبق أن قلنا أن الدولة تساعد الكيبوتز كما يخصص لها جزء من الأموال التى تجمعها الوكالة اليهودية فى الجاليات اليهودية فى الخارج • ولكن كل هذه المصادر لا تفى بالحاجة ، ولذا تقترض الكيبوتزات ، ويتم ذلك بالطبع فى الاطار الرأسمالى ، أى انهـــا تقترض من الجهات التى تتوفر لها امكانيات كبيرة ، أى المصارف •

وهكذا تصبح الكيبوتزات فى حالة تبعية للرأسمالية وللدوائر المالية الكبيرة عن طريق القروض •

وهذا نوع من الترابط لا يقبل الانفصام . وبمجرد ارتباط الكيبوتز بالبنك ، فانه ينضم فورا الى الاقتصاد العام للبلد سواء شاء أم أبى . وهو يرتبط بتوسع اقتصاد البلد أو أزماته ، لأنه جزء لايتجزأ من النظام الرأسمالى . وهكذا تواجه الكيبوتزات مشاكل عديدة وعلى رأسها مشكلة اليد العاملة اذ تضطر حتى الى استخدام اليد العاملة المأجورة .

لماذا ؟ لأن الكيبوتزات تفتقر الى اليد العاملة ، بالرغم من مساهمة « الناحال » .(الذى لا يقدم سوى الشبان الذين يؤدون الخدمة العسكرية) . ولكن هناك سبب أساسى ، وهو أن اليد العاملة المأجورة ، تعطى الفرصة ، فى حدود النظام الاقتصادى القائم ، للتشغيل أو التوفير . فأعضاء الكيبوتز ثابتون ، والكيبوتز مسئول عن توفير احتياجاتهم سواء سارت الأمور على ما يرام أو لم تسر . أما العامل الذى يتقاضى أجرا ، فهو فى وضع مختلف ، وضع اليد العاملة ازاء صاحب العمل .

فالكيبوتز مرتبط بالبنوك عن طريق القروض ، ويدخل بذلك فى اطار أصحاب الأعمال ، وهو يستغل العاملين به كأى صاحب عمل آخر . وهكذا لا يبقى أى شىء اشتراكى حقيقى . لاشك أن كل أفراد الكيبوتز يشتركون فى عمليات طهو الطعام وغسل الأوانى . وقد رأيت عضوا فى البرلمان يضع على صدره فوطة كبيرة ويدفع عربة صغيرة محملة بأوانى الشوربة . ولكنى لم أحرك ساكنا لأنى لا أعتبر ما رأيت من معالم الاشتراكية ولكن من المظاهر الفلكورية . ويمتلك هذا الكيبوتز مصنعا صغيرا يستخدم فيه عمالا بوصفه صاحب عمل . ولذا فقد بدت لى هذه الفوطة كستار كبير لاخفاء الحقيقة المحرجة .

والكيبوتز يعبر فى رأيى عن المأساة الكبرى التى تعيشها اسرائيل ، ذلك أن أفضل صفات المواطنين الاسرائيليين تنحرف بل

وتحطم فى أغلب الأحوال بسبب العقلية المحيطة بها • فبقدر ماتكون الفضائل كبيرة ، بقدر ما يكون من الخطر الانحراف بها • فالشجاعة والقدرة على العمل ليست قيما مستقلة بذاتها ، وتاريخ البشرية عامر ، حتى فى مراحله الحديثة ، بنماذج لبلاد عديدة خسرت الكثير باستخدام طاقاتها من أجل تحقيق أهداف سيئة • وكان من الممكن أن تتحقق أهدافا ايجابية باستخدام هذه الطاقات بطريقة أخرى • وتعيش اسرائيل بأكملها فى أرفع أشكال التطرف القومى ، بالرغم من محاولتها اخفاء هذا التطرف بالتشدق بالألفاظ ، ويؤدى هذا التطرف الى افساد كل شيء ، ولا يمكن أن تقوم اشتراكية حقيقية على هذه الأسس •

لن تكون لحركة الكيبوتزات أبعاد واسعة • فبقدر ما تنساق اسرائيل أكثر فأكثر فى طريق الدول الرأسمالية ويرتبط اقتصادها باقتصاد هذه الدول ،(اقتصاد الولايات المتحدة أولا ، ثم اقتصاد المانيا الفدرالية بدرجة غير هينة ، بقدر ما يتحول الكيبوتز بالتالى الى مؤسسة بالية تعجز شيئا فشيئا عن الحفاظ على أى شيء سوى واجهتها الجماعية •

وقد كتب موشى كيريم يقول، ويا لأناقة الكلمات التى يستخدمها فى التعبير : « لا شك أن الحركة تواجه مصاعب ، خاصة فى مجال اليد العاملة ، وأنها لا تتمتع الآن بالتأثير الكبير الذى مارسته فى الماضى » ، ولذا فلابد لها أن «تتغير لكى تتلاءم مع مقتضيات العصر» •

ولكن الكيبوتزات تفقد سكانها • ويمر عليها أعداد كبيرة ، ولكنها لا تستقربها • ويتجه الشباب بالأخص نحو أنماط أخرى من المياه بالرغم من الخطب الملتهبة التى تذيعها « الناحال » • فمكاتب تل أبيب تغص بشبان وشابات يفضلون حياة المدينة • ويهجر الكثيرون الكيبوتزات لأن الحياة الخاصة التى تفترض الجماعية البدائية

لم تعد محتملة فى نظرهم فى المدى الطويل • ويتركها البعض الآخر لأن لوائحها تقضى بألا ترسل الشباب الى الجامعات الا بالقدر الذى يلزمها لتشغيل مرافقها • فاذا كان الكيبوتز فى حاجة الى طبيب مثلا ، فانه يدفع مصاريف طالب واحد ، لا طالبين أو ثلاثة حتى اذا كان هناك عدد منهم له نفس الميول أو الاستعدادات • وقد قابلت عـددا من الذين هجروا الكيبوتزات « لأنهـا ليست فى حاجة » الى تخصيص فى اللغة أو التاريخ أو الجغرافيا •••

على أن الأغلبية تترك الكيبوتزات ، لأنها تدرك عن وعى أو غير وعى أن هذه الحركة خادعة ومناقضة لنفسها •

ان الاشتراكية على الطريقة الاسرائيلية مجرد ضمير الى الماضى بالنسبة للبعض ومبرر يتذرع به البعض الآخر ، ولكنها لم تعـد تتمتع على أى حال بجاذبيتها السابقة • وقد تحولت حركة الكيبوتز، بتطورها الحالى ، الى أداة فى يد القوة العسكرية ، تماما كما كانت أيام انطلاقتها الكبيرة •

٧- مفهوم فريد من نوعه للنقابية

***

يقع مبنى الهستدروت الضخم فى الحى الشمالى بتل أبيب وهو يحتل مساحة كبيرة لاقامة مجموعة من المبانى • وتبدو كتل المكعبات البيضاء التى يتألف منها المبنى صامتة فى مظهرها الخارجى • أما فى الداخل فهى عبارة عن متاهات من الممرات والأدراج ومئات المكاتب والمصاعد العامرة دائما بالأفراد والحركة دائبة فى المبنى •• والهستدروت هو الاتحاد العام للعمل فى اسرائيل • وهو أحد معاقل الدولة •

ويعتبر الهستدروت الاتحاد النقابى الاسرائيلى الوحيد اذا استثنينا جماعة نقابية دينية لا أثر لها تقريبا • ويتمتع الهستدروت باحتكار فعلى ويضم حوالى ٧٠٪ من السكان ، عن طريق أعضائه وأفراد أسرهم • وهو يتمتع بسلطات واسعة وبامكانيات مالية هائلة •

ويسيطر الهستدروت باستثماراته على ٢٢ ٪ من الاقتصاد القومى ، خاصة فى قطاعات المبانى والاستيراد والتصدير والنقل البحرى وشركات الأتوبيس والتاكسى والبيع ونقل المنتجات الزراعية• ويمتلك الهستدروت مصرفا خاصا به ، وهو ثانى مصرف فى اسرائيل، كما انه يساهم فى عدد كبير من المؤسسات بالاشتراك مع رأس المال الأجنبى الأمريكى والألمانى الغربى فى أغلب الأحوال • وهكذا يعتبر الهستدروت تنظيما نقابيا عماليا من طراز فريد فى نوعه ! ولا شك انه من المفيد أن نتمعن فيما يمثله هذا التنظيم بالفعل •

ارتبط الهستدروت أولا ببداية تطور الجالية اليهودية فى فلسطين ، ثم ارتبط بعد ذلك بدولة اسرائيل ، ولذا فهو من نتاج

طبيعة هذه الجالية وتلك الدولة • كان طابع الهستدروت زراعيا فى أول الأمر ، عندما كانت الهجرة اليهودية تعتمد على الكيبوتزات ، ثم تحول شيئا فشيئا الى التصنيع حتى وصل الى شكله الحالى مع انشاء دولة اسرائيل وانطلاقها • ويؤدى الهستدروت ، فى المجال الخاص به ، نفس الدور الذى يقوم به كل من الجيش والمدرسة • فهو فى الواقع الجناح الثالث فى المجموعة الثلاثية التى تتولى تشكيل وتنميط المواطنين ، والهستدروت مكلف بتولى أمور الطبقة العاملة ومجال العمل عامة من وجهة نظر صهيونية صرفة ، شأنه فى ذلك شأن الدولة التى أقامته وتستخدمه أداة لها • ولا يخفى قادة الهستدروت هذه الحقيقة ، فكلهم أعضاء فى الأحزاب الصهيونية ، كما أن أغلبية الوزراء تحتل المناصب النقابية الرئيسية •

ماذا يعنى ذلك من الناحية العملية ؟ انه يعنى أن النقابة فى اسرائيل لا تهدف أساسا الى تنظيم العمال ليدافعوا عن حقوقهم ، وليحصلوا على مطالبهم ، بقدر ما تهدف الى حصرهم فى الحدود التى لا تعرض مركز الحكومة للمصاعب •

« يضمن الهستدروت قدرا غير ضئيل من المزايا الاجتماعية خاصة فيما يتعلق بالاجازات والخدمات الطبية والمعاشات • ولكنه فى نفس الوقت ، من أضمن وأدق أدوات البلبلة السياسية التى يتردى فيها حتى الآن الجانب الأكبر من الرأى العام الاسرائيلى •

فالطبقة العاملة الاسرائيلية معرضة أكثر من أى طبقة عاملة أخرى للمتاعب بحكم تكوينها •• فأغلب أفرادها من المهاجرين الذين نزحوا بعد عام ١٩٤٨ ، ولم يكونوا من أبناء الطبقة العاملة فى بلادهم الأصلية ، أى أنهم يفتقدون أصلا التراث العمالى • فالهجرة اليهودية الى اسرائيل لا تنتمى الى الفئات العمالية سواء أكانت وافدة من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا • وكان من الممكن أن تصبح النقابة خير

مدرسة لتنمية الوعى الطبقى · كان ذلك شرف النقابة وواجبها ، ولكن المنهج الصهيونى حال دون ذلك · وتاريخ الحركة النقابية الاسرائيلية يوضح تماما ما أدى اليه هذا الطريق · فمنذ قيام الهستدروت فى عام ١٩٢٠ وحتى انشاء اسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، لم يكن أصحاب الأعمال هم العدو الرئيسى للهستدروت (وكان يسمى آنذاك منظمة العاملين اليهود فى فلسطين) بل العمال العرب الذين كان يتعين استبعادهم من سوق العمل بكل وسيلة وبأى ثمن · أما الآن فان هدف الهستدروت المعلن ليس التقدم بالطبقة العاملة والعاملين الى الأمام ، بل تدعيم الدولة اليهودية فى حد ذاتها ·

وهناك حقيقتان يبدو لى أنها تحملان مغزى كبيرا · ففى عام ١٩٦٥ خاض عمال المنشآت الاسرائيلية ٢٧٧ اضرابا ، لم يؤيد الهستدروت منها سوى ٦٦ اضرابا · أما كل الحالات الأخرى ، وعددها ٢١١ ، فقد وقف فيها الهستدروت فى صف أصحاب العمل لاحباط الاضرابات ·

أما الحقيقة الأخرى فتتعلق بعلاقات الهستدروت الخارجية ، كان هذا الاتحاد عضوا فى اتحاد النقابات العالمى ، ولكنه انسلخ عنه لينضم الى الاتحاد الدولى للنقابات الحرة · ويرجع السبب الأصلى فى ذلك الى ارتباط الهستدروت الوثيق ، سواء من النواحى الاقتصادية أو السياسية ، بالاتحادات العمالية فى الولايات المتحدة (اتحاد العمال الأمريكى ومؤتمر المنظمات الصناعية) ·

وتتم الزيارات وتتوثق العلاقات والاتصالات بين الطرفين ، بل أن القادة الأمريكيين دفعوا اتحادات عمال الموانىء والشحن فى مناسبات عديدة الى مقاطعة السفن المصرية والسعودية ردا على موقف البلدين من اسرائيل · كما أن المساعدات التى تقدمها الاتحادات الأمريكية للهستدروت ذات طابع مادى مباشر · وفى مقابل ذلك

يقوم الهستدروت بدوره كممثل مخلص « للعالم الحر » عن طريق معهده الأفرو أسيوى الذى نجح فى التغلغل الى حد ما فى بعض الجمهوريات الفتية بأفريقيا السوداء ·

ويقول المسئولون عن الهستدروت أن اتحادهم يقوم بدور حاسم فى تحويل المهاجرين النازحين من كل الجهات الى مواطنين اسرائيليين· وهذا صحيح ، ولكن من المؤسف حقا أن الهستدروت يبث فيهم روح التطرف القومى الخطيرة ·

لم يكن فى اسرائيل عند قيامها سوى ٢٢٪ من سكانها الحاليين· ولهذا الرقم دلالته اذ يوضح مدى اتساع عملية الهجرة · وعلى عكس الفكرة الشائعة التى تكاد ترتقى الى مرتبة الشعار ، فان نسبة الاسرائيليين ، من الضحايا المباشرين للنازية (أى الذين هربوا منها أو نجوا من جرائمها) ضئيلة نسبيا · فالاحصائيات التى أذاعتها اسرائيل ذاتها تقول انهم لا يتعدون ١٥ أو ١٦ ٪ من السكان الحاليين فى الدولة اليهودية ·

من أين وفدت اذن بقية المهاجرين ؟ أقلهم جاء من أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، وبعضهم جاء من وسط أوروبا (أى من البلاد التى قامت منها نظم ديمقراطية شعبية) والبعض الآخر من آسيا وأفريقيا ·

ويحتاج هذا الخليط المتنوع الى عملية توحيد · على أن هذا الخليط العجيب كان يضم العديد من القناصة التى لا تميل ، لأسباب جدية ، نحو الأفكار المتقدمة أو نحو التعايش بحكم انتماءاتها الاجتماعية أو دوافع انتقالها الى اسرائيل · فبعض المهاجرين معاد للسوفييت والبعض الآخر معاد للعرب ، ولا شك أن تأجيج المشاعر القومية الصهيونية لم يساعدهم قط على التخلص من هذه الاتجاهات! أما شباب « الصابرا » المولودون فى اسرائيل التى يعتبرونها وطنهم

بلا منازع ، فانهم جديرون فى الواقع بأن يسيروا فى طريق آخر غير الطريق المحفوف بالمخاطر الذى يساقون اليه • وكلمة « صابرا » تعني أصلا نوعا من الصبار المنتشر فى اسرائيل وهو شائك الملمس من الخارج ولكن لبه حلو • وتطلق هذه التسمية على الذين لم يولدوا فى المهجـر بل على أرض اسرائيـل • وهم يمثلون ٤٠٪ من سكان اسرائيل اليهود ، ولا شك أن آرائهم واتجاهاتهم فى المسـتقبل ، والأفكار التى تلقن لهم والمبادىء التى ينشئون عليها ، ستكون من العوامل الحاسمة فى مستقبل هذا البلد ومستقبل الشرق الأوسط • ويجب أن أكرر أن هؤلاء المواطنين يمرون بمراحل ثلاث أساسية : المدرسة والجيش والهستدروت بمنظماته المختلفة •

ولا يدعو الأمر الى الاطمئنان فى ظل الجو السائد فى اسرائيل• وقد سألت أحد أعضاء المكتب التنفيذى للهستدروت عن سبب اعتناقه المبادىء الصهيونية ، وذلك خلال مناقشة لى معه • فراح يشرح لى المصير العظيم المتوقع لشعب التوراة • ولما أشرت الى أن أشياء كثيرة تغيرت فى العالم منذ أربعة آلاف سنة ، أجابنى بكل بساطة : « ولكن رسالة التوراة بالنسبة لى شىء ملموس ، وحالى تماما ككل ما قرأت فى الصحف بالأمس فقط •• ! » وقد ردد هذا الكلام ليبرر ضـم القدس والضفة الغربية للأردن • ويبدو لى أنه من المخيف حقا أن تكون رسالة التوراة على هذا النحو !

أما أعضاء الهستدروت المستنيرين ، وعلى رأسهم الشيوعيون ، فيطالبون بأن تقوم هذه المؤسسة بدورها كنقابة عمالية • ولكن يجب أن يتحرر الهسـتدروت أولا من قبضـة الدولة ، ولا ينسـاق وراء النقابات الأمريكية ، أما فى مجال الادارة الداخلية ، فيجب ألا يتعرف الهستدروت بالنسبة للمنشآت التى يمتلكها بالكامل أو التى يشرف عليها ، كأى صاحب عمل آخر ، بل يجب أن يمثل العمال فى مجالس ادارة هذه المنشآت بنسبة ٥٠٪ على الأقل • وتلك مطالب معقولة ،

ولكن البيانات الملتهبة التي صدرت من الهستدروت قبل حرب الأيام الستة وبعدها لا توحى للأسف بأن قيادة الهستدروت ستسلك هذا الطريق ٠

***

لا شك أن هناك مشكلة بطالة فى اسرائيل ٠ وعندما كنت هناك ، فى ديسمبر ، نوقشت المشكلة فى الكنيست حيث تعرض الجنرال ايجال آلون ، وزير العمل ومنافس الجنرال ديان فى السباق من أجل منصب رئيس الوزراء ، لمواقف حرجة ٠ ومن الصعب أن يحصل المرء على أرقام دقيقة أو تقريبية لضحايا البطالة ٠ فالفارق بين الأرقام الرسمية وغير الرسمية كبير ويرجع ذلك الى حد كبير لاستحالة تقدير مدى البطالة الحقيفية بين العمال العرب لأنها شبه مزمنة بينهم ، كما أن العمالة الجزئية ، عن طريق الاشتغال بضعة أيام فى الشهر ، منتشرة نسبيا ٠

وقد تراجعت البطالة بسبب الحرب اذ أدت الى استدعاء عدد كبير من الأفراد للخدمة العسكرية ، كما حافظت بعد ذلك على وجودهم فى الجيش ٠ وكان مد فترة الخدمة العسكرية من أسباب هذا التراجع وقد تحسنت الأوضاع نوعا ما بعد المصاعب الاقتصادية التى شهدتها سنتى ١٩٦٥ ، ١٩٦١ ٠ وما زال هناك ثلاثون ألف عاطل ، وهو رقم ليس بالبسيط بالنسبة لبلد صغير ٠ على أن المشكلة الأساسية لا تتمثل فى النطالة بل فى استحالة تكافؤ الفرص بين الاسرائيليين أنفسهم فى سوق العمل ٠

فهناك تفرقة عنصرية واضحة ضد العرب فى اسرائيل ٠ ولا تخفى هذه الحقيقة بل انها تعلن أحيانا فى صراحة عدوانية وعاصفة ٠ ولكن هناك أيضا تفرقة أكيدة بين اليهود أنفسهم بعضهم وبعض حسب المناطق المختلفة التى جاءوا منها ٠ فاليهود المنتمون الى

أصل أوروبى أو أمريكى ، الذين يسمون « يهودا بيضا » لا يعتبرون « اليهود السود » النازحين من أفريقيا أو آسيا ، أندادا لهم ٠ ولاشك أن هذه التفرقة ليست رسمية لأنها لا يمكن أن تكون كذلك ، ولكنها تتمثل فى أبسط تصرفات الحياة اليومية ٠

ففى مجال الاسكان مثلا ، رأيت فى يافا وحيفا يهودا مغاربة وتونسيين ولا يعيشون فى أوضاع أفضل من أوضاع العرب ٠ مع بعض الفروق الضئيلة ، فهم يسكنون فى أكواخ لاتكاد تختلف حالتها عن حالة أكواخ العرب ٠ وقد أقامت الوكالة اليهودية (ومن اختصاصاتها تنظيم الهجرة) حيا راقيا فى شمال الناصرة للمهاجرين الذين يسمونهم هنا « الوافدين الجدد » ٠ ويبلغ عدد سكان مدينة الناصرة ٣٥ ألفا أغلبهم من العرب ٠ أما الناصرة الجديدة اليهودية المقامة على تلال تشرف على المدينة فتتألف من منازل مريحة ، أنيقة وحديثة للغاية ٠ وكانت هذه المساكن مخصصة فى رأى الوكالة للمهاجرين ٠ ولكنهم ليسوا أى مهاجرين على أى حال !

كانوا قد أقاموها ، حسب تفكيرهم لمهاجرين من أصل أوروبى، قادمين من بولندا ورومانيا ، ولكن التوقعات المتفائلة للمنظمات الصهيونية لم تتحقق اذ أن المهاجرين الأوروبيين كانوا أقل من أن يشغلوا كل المنازل الجميلة التى أقيمت من أجلهم ! وقال بعض أصحاب التفكير المنطقى : ما علينا ٠ لماذا نتركها خاوية ؟ الأفضل أن يستفيد منها اليهود القادمون من أفريقيا الشمالية ومصر واليمن الذين يعيشون فى ظروف صعبة ٠

وقد يبدو هذا التفكير منطقيا ، ولكنه يتعارض مع التفرقة الحقيقية ٠ فاقامة اليهود الشرقيين فى « الناصرة الجديدة » سابق لأوانه ٠ لذا فقد ظلت مساكنها خاوية جزئيا وظل « اليهود السود » فى أكواخهم ٠

وفي مجال التقاليد ، فان الزواج بين يهود « سود » ويهود « بيض » يستدعي في حالات كثيرة قدرا من الشجاعة الحقيقية من جانب الطرفين • وقد قابلت أسرة من أصل مجرى كانت احدى بناتها تريد أن تتزوج من يهودى تونسي ، وعرفت المأساة الحقيقية التى تعرضت لها الأسرة • كان الأبوان لا يعترضان على أى شيء فى شخص الشاب سوى أصله « الشرقى » • ويجب أن أقول أن الحزن الذى انتاب الأم كان شبيها الى حد كبير بالحزن الذى انتاب صديقة لى من نيويورك عندما أفادتنى عن « المصيبة الكبرى » التى حلت بها •• وهى خطبة ابنتها لشاب من أصل بورتوريكى ! ولو أن هذه الحالة كانت شاذة لما أوردتها ، ولكنها تدخل للأسف فى نطاق اتجاه عام سائد •

أما مجال التشغيل ، فهو موصوم أيضا بالتفرقة العنصرية • ولا مجال للكلام عن العرب ! ويواجه اليهود الآسيويون والأفريقيون مصاعب لا يمكن التغلب عليها • ولو أننا تصورنا أن هؤلاء القوم يحصنون فورا ضد الرواسب التى كانوا يعانون منها ، كما كنا واقعيين • فالاسرائيليون ليسوا محصنين ضد سموم التفرقة العنصرية • ولا يجد أى « يهودى أسود » عملا مهما أو مركزا مسئولا • وهم يعللون ذلك بأن مستواهم الثقافى لا يضارع مستوى غيرهم من المهاجرين ، وذلك لملابسات مختلفة • وهذا صحيح أحيانا، ولكن التفرقة قائمة فعلا عندما لا يكون الأمر كذلك •

ويمكننى أن أقدم مثلا واحدا من بين عشرات الأمثلة المشابهة ، وهو خاص بفتاة من الاسكندرية ، وهى يهودية مصرية جاءت الى اسرائيل بعد حرب السويس ، وتتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة، بمستوى الشهادة الثانوية ، كما تجيد أعمال المحاسبة • وقد ظلت جميع المصارف والادارات مغلقة فى وجهها لعدة شهور متوالية وأفادها الهستدروت ، الذى لجأت اليه ، ما دام الحصول على عمل فى

اسرائيل يستدعى اللجوء الى النقابة ، فانها تستطيع أن تستخدم فى البيوت حتى يوفروا لها العمل المناسب . وهذا ما أقدمت عليه فعلا لكى تعيش .

ويزاول « اليهود السود » كل الأعمال المنحطة : حمالين ، عمال مصاعد ، عمال يدويين ، فتيات مقاه ، طاهيات .. الخ . وقد قصوا لى حكاية شاب له نفس كفاءات ومؤهلات الفتاة السكندرية ، وقد استبعدوه هو أيضا من كل الأعمال التى يصلح لها بسبب أصله . ولما يئس من توالى رفض تشغيله ، أجاب بخطابين على عرض واحد للعمل . وقد أورد فى الخطابين شهاداته الحقيقية ، ولكنه وقع على أحد الخطابين باســـمه الحقيقى الذى يؤكد أنه « شرقى » ووقع على الآخر باسم مستعار له رنين « غربى » . وقد تسلم ردين ، الأول بالرفض وهو موجه « لليهودى الأسود » والآخر بالترحيب والتحمس وهوموجه « لليهودى الأبيض » المدعى .

ومن الواضح أن عملية انصهار السكان المنتمين الى حضارات مختلفة تماما بعضها عن بعض يثير مشاكل معقدة أمام اسرائيل . ولا يحق لنا أن نطالبها بحل كل هذه المشاكل دفعة واحدة ، ولكن من حقنا أن نبدى دهشتنا وقلقنا من هذا الاصرار على اختيار الطريق المجانى للتقدم والاستنارة سواء فى المجال الداخلى أو الخارجى

٨ - تحديد سياسة إسرائيل

***

لا يمكننا أن نحكم على سياسة اسرائيل ، الا من خلال سياستها الفعلية وفى حدود كونها لها نفس حقوق الدول الأخرى • كما لايمكن الحكم أيضا على أعمال وآمال الرجال والنساء الذين اختاروا الانضواء تحت لوائها ، الا من خلال تلك الآمال والأعمال • وينطبق ذلك على كل المجالات سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية •

ومن هنا فان اصرار حكومة اسرائيل على السير فى اتجاه معين يستلفت النظر بشكل خاص • واذا استرجعنا الأحداث باختصار لاتضح لنا الخط العام الذى يحدد مواقف القادة الاسرائيليين منذ حرب كوريا عام ١٩٥٠ ، حتى الآن • فقد ثارت مناقشات صاخبة فى الكنيست حول الموقف من الحرب الكورية ، انتهت بنجاح الحكومة فى الحصول على التأييد فى مساندتها للتدخل الأمريكى • وهكذا وقفت اسرائيل فى صف الولايات المتحدة فى هذا النزاع الذى جعل العالم ، لأول مرة منذ سنة ١٩٤٥ ، على حافة حرب عالمية ثالثة • ولم يكن موقف اسرائيل هذا ، سوى بداية لانحياز مستمر لسياسة المعسكر الاستعمارى ، وقد تؤدى التناقضات بين الدول الرأسمالية الكبيرة الى زعزعة موقف اسرائيل من بعضها ، ولكنها لم تتخل أبدا عن المعسكر الغربى •

***

فى عام ١٩٥٦ تواطأت اسرائيل مع حكومتى فرنسا وانجلترا ، فيما يسمى « ضربة السويس » وهى تدبير هجوم ضد مصر لأنها أممت القناة ••• وفى عام ١٩٥٧ وافقت حكومة اسرائيل بالتمام والكمال على « مبدأ أيزنهاور » الذى يسمح لقوات الولايات المتحدة

بالتدخل فى الشرق الأوسط اذا رأى الرئيس الأمريكى أن هـــذا الاجراء ضرورى ٠٠٠ وفى عام ١٩٥٨ سمحت اسرائيل للطـــائرات الانجليزية بالطـيران بكل حـرية فوق أراضيها لارهاب الجمهـورية العراقية الوليدة ٠٠٠ والقائمة طويلة ولا زالت تطول حتى انهــا غدت مملة ! ولنذكر أيضا بشكل خاص موقف اسرائيل من حـرب الجزائر ٠

كانت حكومة اسرائيل تؤدى بلا أدنى قيد أو شرط السياسة الاستعمارية للأوساط الحاكمة فى فرنسا ٠ وهكذا وقفت اسرائيـل ضـد مصـــالح الشعب الجزائرى والشعب الفرنسى ، بل والشعب الاسرائيلى نفسه فى المدى الطويل ٠ وأدى منطق هذا السلوك الى وقوف أشخاص ، مثل الجنرال ديان (وهو مرتبط شخصيا بجاك سوستيل) فى صف « منظمة الجيش السرى » فى أواخر أيام الحرب ٠ وكان ديان يود أن يساعد هذه المنظمة الارهابية على خلق « معقل وهران » تعتصم به لتلحق الهزيمة بجيش التحرير ٠ ولكن الواقع كان أقوى من هذا الهذيان الذى يعطينا صـورة للملامح الأساسية فى الفكر السياسى لقادة اسرائيل ، ويساهم فى توضيح أسباب تشكك الشعوب العربية من هذه الدولة التى لم ترحب قط فى يوم من الأيام بحصول أى شعب عربى على الاستقلال ٠

ولم تتغير اسرائيـــل اليـــوم ٠ كل ما فى الأمر أن تذبذبات السياسة الدولية ومتطلبات سياستها الخاصة بها ، دفعتها الى التحالف مع أقوى دول الغرب وأكثرها استعدادا للتدخل فيما لا يعنيها ٠٠٠

وقد ارتضت اسرائيل أن تتحول الى عميل للاســـــتراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط فى مقابل تأييد الولايات المتحدة لها فى المجال الدولى ٠ لقد قابل ليفى أشكول الرئيس جونسون فى حدود هذا المفهوم ٠ فقد جاء يطلب الطائرات والوعود بتأييده ، وقدم فى

مقابل ذلك المركز الجغرافي لبلده وسط العالم العربي الذى يسير بخطي ، ولو متعثرة وصعبة ، نحو التقدم ، ويثير بذلك قلق البيت الأبيض ودوائر المال الكبيرة فى « دول ستريت » •

والاحتكارات الأمريكية الكبرى ، صاحبة النفوذ السياسى الحقيقى ، ومنها بالأخص شركات البترول تود أن يكون « شركاؤها » أكثر طواعية • وتستطيع اسرائيل أن تقوم بدور الممثل النشط والمخلص لمصالح ما وراء الأطلنطى فى هذا الجزء من العالم •

***

على أن الاخلاص لا يباع بالقطاعى فى هذا النوع من الصفقات، فالقوى القائدة لدولة اسرائيل فى حاجة الى الولايات المتحدة سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية حتى انها لايمكنها أن تتجاسر على ابداء أى تمنع ، اذ يؤدى مثل هذا الموقف الى سلوك طريق مخيف بالنسبة لقادتها •

وفى الظروف الراهنة تسيطر مأساة فيتنام على المسرح العالمى، ففى كل مكان يقف الشرفاء والعقلاء ضد الاعتداء الاجرامى عليها وفى صف مقاومتها البطولية • وتشعر الشعوب التى تريد أن تعيش حرة أن قضية فيتنام هى قضيتها وتعلن تضامنها معها • وترتفع الأحداث على مستوى الحكومات ، وخارج الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية لتدين المعتدين ، ولكن حكومة اسرائيل لا تضم صوتها الى هذه الأصوات • ولم يتورع وزير دفاعها الحالى ، الجنرال ديان ، عن قبول دعوة القيادة العليا الأمريكية ، للذهاب الى جنوب فيتنام حيث نزل ضيفا على هيئة أركان الحرب •

أما الشعب الاسرائيلى ، فلا يعرف أى طريق يسلك فى ذلك الجو النفسى المسموم الذى يعيش فيه ، وقد يكون متعاطفا بشكل غريزى مع الشعب الفيتنامى ولكنه يواجه دعايات متناقضة • فهناك

بعض الاتجاهات اليسارية التى تحاول أن تثبت له أنه يعيش أوضاعا مشابهة لأوضاع فيتنام • ولما كان هذا الادعاء لا يستطيع أن يصمد أمام أى تحليل جاد ، فان صداه ضعيف • أما الجانب الآخر ، المسيطر على امكانيات صحفية كبيرة ، فيبدى أسفه على مآسى الحرب ، ولكنه يؤيد الولايات المتحدة « فى دفاعها عن العالم الحر ضد مشاريع الشيوعية الدولية » • ومن المؤسف حقا أن هذا الموقف له صدى أوسع فى خضم البلبلة التى يتردى فيها الرأى العام الاسرائيلى • ولكن حكومة اسرائيل لم تعترف بعد بحكومة سايجون بالرغم من الحاح أمريكا عليها ، ولكنها لم تعترف على أى حال بجمهورية فيتنام الديمقراطية •

والواقع أن الحكومة الأمريكية تعتبر اسرائيل صديقا يمكن الاعتماد عليه ، خاصة وهى تعانى من انعزالها التدريجى نتيجة لسياستها ازاء فيتنام • وقد حيى الجنرال ديان علنا ، وفى مناسبات عديدة ، شجاعة جنود البحرية وأعرب عن يقينه بأنهم سينتصرون• وعندما سافر أشكول الى الولايات المتحدة حرص على أن يحيى وحدة مواقف وأهداف حكومته وحكومة واشنطن •

ولايستطيع أى شخص ، ولا حتى أكثر أصدقاء اسرائيل حماسا لها أن ينكر هذه الحقيقة •

وهناك حقيقة أخرى وهى اننى سمعت فى كل أحاديثى مع الأوساط العربية ، سواء داخل اسرائيل أو فى الأرض المحتلة أى توقع النصر لجبهة التحرير الوطنية والاشادة بشجاعة المحاربين الفيتناميين فى الشمال والجنوب •• وانى لأذكر امرأة من تمرة ، بمنطقة الجليل ، لم تترك فى حياتها قريتها ، وتنوء بمشاكل حياتها ، ولا دراية لها بشئون السياسة ، ولكنها تعى بشكل غريزى الرابطة التى تجمعها برجاء ونساء فيتنام ، اذ قالت لى : « الناس فى فيتنام اخوة لى » •

تعتبر الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة ، أقوى الجاليات التى تقدم المعونة لاسرائيل ، وأحسنها تنظيما • فقد تم جمع ٢٤ مليون دولار فى يوم واحد أثناء حرب يونيو ، وفى مدينة نيويورك وحدها • وقد قابلت فى تل أبيب أحد منظمى التبرع وهو صاحب مصنع كبير لتفصيل ملابس الأطفال ، كان قد تبرع هو نفسه بمبلغ كبير كما فرض على عاملات مصنعه التبرع بأجر يوم عمل ، وهذا الرجل فى الثانية والستين من عمره ، وهو من أصل أكرانى • وقد ترك كييف فى عام ١٩٢٠ مع أسرته التى هاجرت الى أمريكا • وهكذا زاد حقده على « البلاشفة » وأضاف اليه ازدراء مجنون حقا للعرب وتعصب صهيونى مرضى حقا فى رأيى • وقد استمعت اليه وهو يحكى لى أمام خرائب « صودوم » أن المصفحات الاسرائيلية لن تتوقف فى المرة القادمة الا بعد دخول مدينة الجزائر • ولا شك أنه مما يدعو الى الرثاء أن يكون أصدقاء اسرائيل على هذه الشاكلة •

وكثيرا ما يصادف المرء فى اسرائيل أمثال هذا الرجل من أصحاب الأعمال القادمين من نيويورك وتورنتو ولندن وسيدنى وشيكاغو وباريس أيضا • وهؤلاء جميعا يمثلون دولة اسرائيل فى الخارج ، وهى ربيبتهم المفضلة التى يسبغون عليها رعايتهم • فعلى أثر انتهاء الحرب نظم هؤلاء الرجال « اجتماع أصحاب الملايين » الشهير ، فى القدس بعد « تحريرها » وهم يسهرون الآن على تنمية اقتصاد اسرائيل ويضغطون على الجاليات التى ينتمون اليها حتى لا تخف حركة جمع التبرعات لاسرائيل • وكلنا نذكر « الضريبة » التى دعى اليها البارون روتشيلد (وقد استخدم هذا اللفظ بنفسه) الى جبايتها فى يونيو الماضى من كل الفرنسيين اليهود فجمع أموالا حتى من الذين لا يملكون الا القليل •

ومن الجدير بالملاحظة حقا أن اقتصاد اسرائيل لم يعان من حرب يونيو الباهظة التكاليف فالميزانية العسكرية الاسرائيلية من أكبر

الميزانيات نسبيا فى العالم • وكانت كافية حتى قبل العدوان ، للقضاء على التوازن المالى للدولة لولا الهبات المتدفقة من الخارج ومنذ يونيو الماضى ، أرسلت الجالية الفرنسية وحدها ٦ مليار فرنك لاسرائيل • أما المساهمة الأمريكية فهى أضعاف أضعاف هذا الرقم •

وموقف المنظمات الاسرائيلية التى تسيطر عليها العناصر الموغلة فى رجعيتها والمرتبطة ارتباطا وثيقا بالنظام الرأسمالى ، من أسباب دفع حكومة الولايات المتحدة الى تأييد دولة اسرائيل • وهذا هو ثمن « أصوات اليهود » كما قالت جريدة تصدر فى نيويورك •

وهناك مواكب من كبار رجال الدولة الأمريكية تتوافد على اسرائيل لتؤكد « للناخبين اليهود » حبها العميق لدولة اسرائيل • أما جونسون فلم يتمكن من الذهاب بنفسه ، فعوضهم عن ذلك بفيض من التصريحات الحارة • على أن أحد هذه التصريحات قوبل ببرود اذ انه قال « انه مستعد للدفاع عن اسرائيل ، تماما كما يدافع جنودنا عن فيتنام الجنوبية » • وقد حزن الكثيرون لهذه المقارنة •

وسافر المرشحون الرسميون للحزب الجمهورى للرئاسة تباعا الى تل أبيب ، ومنهم السناتور بيرس ، من ولاية ايلينوس الذى دعا الاسرائيليين الى « عدم التخلى عن شبر واحد من الأرض » ، ورومنى، حاكم ولاية ميشنجام الذى صرح انه لايستطيع أن يخفى « الاضطراب الروحى الذى أثاره فى نفسه وجوده فى اسرائيل • وقد أوضح على التو أن هذا الاضطراب يرجع الى أن « مصير العالم يتوقف أساسا على بلدين وهما : الولايات المتحدة واسرائيل » • أما ريجان حاكم ولاية كاليفورنيا والمعروف بعدائه السافر للزنوج والشيوعيين والعمال المضربين ، فلم تكن قد واتته بعد فرصة السفر الى اسرائيل ، فأرسل لهم برقية يقول فيها ما معناه « الى الأمام سر » بلهجة جاويش «حمش» يخاطب جنوده •

وانى لأدرك أن هنــاك اسرائيليين يعانون من هذا الوضـــع ويأسفون للمساندة التى تأتيهم من مثل هؤلاء المؤيدين • على أنهـم لا يريدون أن يفهموا أن سياسة حكوماتهم المتتالية ، منذ نشــأة اسرائيل ، لا بد وأن تؤدى الى هذا الوضع المذهل • فليس من باب المصادفة أن تحالفات اسرائيل تربطها بأكثر الدول رجعية وعدوانية وتهديدا للسلام • وليس من باب المصادفة أن المساندة التى تحصل عليها اسرائيل تأتى أساسا من البلد الذى يضطهد الزنوج ويقتل الفيتناميين ويحمى أكثر الحكومات رجعية وفسادا على سطح الأرض، ابتداء من حكومات سايجون وسيول وسان دومنجو واليونان••الخ• وليس من باب المصادفة أيضا أن الدولة الاسرائيلية تعيش فى كنف أكبر دولة استعمارية •

واذا كان لاسرائيل الحق فى البقاء ، فانه لا يحق لها أن تكون توسعية وعدوانية ، وليس من حقهـــا أن تنتهج فى القرن العشرين سياسة أشبه بالسياسات الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، وليس من حقها أن تقف فى وجه مسيرة شعوب الشرق الأوسط الى الأمام ، وليس من حقها أن تكون معقلا مسلحا للاستعمار الأمريكى فى منطقة تتخلص شيئا فشيئا من اضطهاد المــاضى من خلال تجــارب قاسية ، وليس من حقها أن تقود الشعب الاسرائيلى نفسه الى الحداد والكارثة •

وعلى الشعب الاسرائيلى أن يبحث بنفسه عن وسائل التخلص من هذه السياسة التى لا يمكن الا أن تؤدى الى كارثة • ويجب على أصـــــدقائه الحقيقيين ، وعلى كل أنصار السلام ، أن يساعدوه على التخلص من الخــوف الذى لا يقـــوم على أساس وأن يوضـــحوا له امكانيات الازدهار والتحرر •

لقد قال لى صديق اسرائيلى ، وهو رجل عاقل تعذبه الأوضاع

الراهنة « أنا أدرك تماما أن هذه السياسة خاطئةمن أساسها وخطرة ، ولكن لا يسعنى الا أن أردد مثل الانجليز : « انه وطنى ، سواء كان مخطئا أم مصيبا ٠٠ »

وقد ذكرته بقصة قديمة من حكم الشرق ، فقد قال حكيم عجوز لمريديه « عليكم بمساعدة اخوتكم سواء أصابوا أم أخطئوا ٠ ولكن أحد مريديه قال له : « ولكن ، يا معلمنا ، كيف يستطيع الانسان أن يساعد أخاه وهو مخطىء » فأجاب الحكيم : « بأن تمنع ساعده عن الحركة حتى لا يفعل الشر » ٠

فهـرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦١٣/١٩٧١

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر